الإسلام في مواجهة تيارات العصر

بقلم

أ. د. شوقي إبراهيم علي عبد الله

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة

جامعة الأزهر كلية أصول الدين - القاهرة

وجامعة الملك سعود كلية التربية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سلك منهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

يقول الله تعالى: «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض»[1].

ويقول: «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب»[2].

تشير هذه الآيات القرآنية وغيرها أن الناظر فى كون الله الواسع لا يسعه إلا أن يعترف بأن لهذا الكون مدبراً قادراً خلقه بقدرته فالكون كله إن هو إلا مظهر من مظاهر قدرة الله الشاملة وعنايته الحكيمة ولكن كثيرا من الناس يعطلون عقولهم ويلغون فكرهم فيزعمون أن هذا الكون لا يستند فى عظمته إلى تدبير إلهى وإنما يقوم بتدبير نفسه وهؤلاء هم الدهريون الذين عبروا عن مذهبهم الفاسد بقولهم إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر وقد نعى القرآن الكريم عليهم هذا الجهل حيث قال سبحانه: «وقالوا ما هى إلا حياتنا

---

(١) سورة يونس ١٠.

(٢) سورة ق آية ٦ — ٨.

الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون »[1].

فالناس إزاء النظام الكونى ينقسمون فريقين مختلفين . فريق القائلين بالتدبير الإلهى أو العناية الإلهية وهم الذين يؤمنون بالغيب .

والفريق الآخر القائلون بالمصادفة أى المتنكرون لعالم الغيب .

وقد زادت موجة الإلحاد الحديثة فى أوربا بسبب :

١ — الطغيان الروحى ويتمثل ذلك فى تقديس رجال الدين .

٢ — الطغيان العقلى والفكرى ويتمثل فى الحجر على العقول من التفكير فى أمور الدين ورفض أية مناقشة أو تساؤل أو محاولة لفهم نصوص الدين .

٣ — الطغيان المالى من خلال تملك الكنيسة للاقطاعات والأراضى الزراعية وفرض الاتاوات — كانت هذه الظروف بمثابة تمهيد لرفض كل ماجاءت به الكنيسة كله والتى قدمت له بصورة هزلية عجزت حل أيسر مشكلات حياته ووضعت العراقيل بينه وبين الاتصال بخالقه وفى الوقت نفسه لم تقدم له الفهم الذى يقنع عقله ويرضى نفسه ويغنى روحه .

إن غياب الدين الحق يحدث فى النفس فراغاً رهيباً يدفع بالإنسان عن دينه والبحث عن بديل . فبدأ العقل المتحرر من سلطان الكنيسة يوضع الفلسفات التى تناقش الدين وتحلله وتقيم الأدلة على بطلانه أو على حجته .

(١) الجاثية آية ١٧ — ٢٠

وقد انتهى هذا التأمل بفريق من المفكرين إلى القول بوجود عالم الغيب بينما انتهى بفريق آخر إلى رفض الإيمان بالله ورفض عالم الغيب .

ومن هنا وجب على العلماء التصدى لمثل هذة المذاهب والأفكار بصورة علمية دقيقة بعيدة عن التعصب والسطحية وبأسلوب هادىء رصين يبدأ بفرض شبهاتهم وتحليلها وينتهى بنقدها وتقويمها وتفنيدها بما تعتمد عليه من أسس ومرتكزات والتصدى لمثل هذه الموضوعات خدمة ضرورية للعقيدة الإسلامية ، وهذا ما أشارت إليه عبارات شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال : « من لم يجادل أهل الباطل حتى يقمع باطلهم لم يكن أوفى الإسلام حقه . فيقمع باطلهم بالعقل ويبين صحة مذهبه بالعقل والنقل » .

وقد طبق شيخ الإسلام نفسه كلامه هذا حين تصدى للفرق الضالة فى عصره وهذا يتفق تماماً مع المنهج الإسلامى الحكيم فقد عرض القرآن الكريم مذاهب الضالين من أهل الكتاب وعقائد الوثنيين ثم بين فساد تلك المذاهب وبطلان هذه العقائد بأقوى الحجج وأقوم البراهين .

بل لقد حثنا سبحانه وتعالى أن نترسم هذا المنهج الرائع فى أبطال العقائد الضالة وإقامة الحجة الواضحة على فرق المبطلين .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[1] .

ويقول : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم »[2] . والجدال يستهدف اقامة الحجة ويقوم قبل ذلك على أساس الفهم الواعى للمذهب الباطل والعقيدة الفاسدة .

(١) سورة النحل آية ١٢٥
(٢) سورة العنكبوت ، آية ٨٦

وهذه دراسة متواضعة قمت بها للرد على الشبهات التى يثيرها الماديون ويعتمدون عليها فى انكار الغيبيات وتهدف هذه الدراسة إلى ترسيخ العقيدة الصحيحة فى نفس المسلم حتى يكون قادراً على مواجهة العصرية بالتحدى والثبات ، ويتخذ مكانه الصحيح على خريطة العالم والحياة .

وقد ذكرت أن الله سبحانه وتعالى قد جعل هذا العالم المخلوق دليلا على وجوده كما جعل التناسق فى نظامه دليلا على وحدانيته .

والعالم قسمان : غيب وشهادة :

فعالم الشهادة هو ما يقع تحت مجال الحواس وهذه الحواس سبيلنا للتعرف على موجودات عالم الشهادة والعقل هو أداة الحكم فى ذلك .

وأما عالم الغيب فهو مالا يقع تحت مجال الحس المباشر أو غير المباشر بالنسبة لنا وإن كان هذا لايعنى أن عالم الغيب ليس موجودا إذ من القواعد المقررة أن عدم الوجدان لايستلزم عدم الوجود .

وفى هذا إشارة إلى خطأ الذين جعلوا العالم قسمين : المحسوس والمعقول .

والمعقول فى الحقيقة ما كان فى العقل . وأما الموجودات الخارجية فيمكن أن ينالها الحس وأن يوقف الإحساس بها على شروط متيقنة الآن، على حد تعبير شيخ الإسلام بن تيمية — رحمه الله — وطريق معرفتنا لكل مايتعلق بعالم الغيب هو الخبر الصادق عن المعصوم قرآن وسنة[1] .

وبذلك تظهر لنا أهمية الإيمان بالغيب فهو صفة المتقين بل هو أعظم أركان الإيمان .

---

(١) عالم الغيب والشهادة ، عثمان جمعة ، ص ١٢٢

وبهذا يرتقى هذا المخلوق إلى مستوى الإنسانية الكريمة بينما يهبط كل من يتنكر للغيب إلى مستوى البهيمة ويصبح انكار الغيب الحاد فى الدين ونقصا فى العقل وعائقا أمام التقدم العلمى نفسه . هذا وأسأل الله سبحانه أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه الكريم ويقبله منى ويثقل به موازين أعمالى يوم لاينفع مال ولا بنون ، وأسأل الله أن يمنحنى عونه وتوفيقه إنه نعم المولى ونعم النصير ويغفر لى ماوقعت فيه من تقصير ، وما قارفته قلمى من زلات إنه غفور رحيم (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)[1] .

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦

تفنيد شبهات لمنكرى الغيب

من هم منكرو الغيب ما الذى دعاهم للإنكار ؟

وما هى البراهين التى اعتمدوا عليها ؟

وهل منها شىء يصلح ويثبت أمام البحث العلمى النزيه وأمام الحق الذى لا يميل مع هوى متبع ولا تعصب مذهبى .

المنكرون للغيب أو الملحدون أو الماديون أو الدهريون كلها ألفاظ متعددة لمسمى واحد . فهم منكرون للغيب لضيق أفقهم وحصرهم له فى إطار المحسوسات والمرئيات ، وهم ملحدون لأنهم انحرفوا عن الحق وابتعدوا عن الصواب ، وهم دهريون لقولهم كما قال تعالى عنهم : (ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر[1]) .

وهم طبيعيون لأنهم يقولون بالطبيعة الفاعلة (وقالوا إن هى إلا أرحاء تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر)[2] .

وهم ماديون لأنهم يهتمون بإشباع الجانب المادى فى الإنسان من الأكل والشرب والجنس وحيازة المال ويقولون بالحتمية المادية التاريخية ويقول ماركس لا إله والحياة مادة .

ومنكرو الغيب فئة قليلة وهم قد وجدوا على مر العصور وقولهم واحد وفكرتهم واحدة مهما اختلفت الأسماء وتعددت العبارات .

والذى ينبغى أن نلفت النظر إليه أن الإلحاد فى بعض أدواره ردة

(١) الجاثية آية ٢٤ .

(٢) محمد الغزالى ، عقيدة المسلم ص ٢٧٨ .

فعل لتعصب دينى وتزمت متطرف أو أنه ظهر فى فترات القلق النفسى والترف الحضارى والغرور العلمى .

وفى القرنين ١٨ ، ١٩ الميلاديين ظهرت أكبر موجة إلحاد فى التاريخ الحديث ويمكن تلخيص ذلك فيما يلى :

١ — تحريف الإسلام النازل على سيدنا عيسى وتغيير الإنجيل ومزج العقيدة الصحيحة بالفلسفة اليونانية والعقائد الوثنية الرومانية مما أدى إلى التثليث .

٢ — طغيان الكنيسة خلال القرون الوسطى للميلاد وسيطرتها على شئون الدين والدنيا واعتناقها لفلسفة أرسطو واعتبارها جزءاً من العقيدة وتكفير معارضيها أو من يرى خطأها والحجر على حرية العلماء ومنعهم من البحث العلمى الحر مما جعل أوربا فى القرن الخامس عشر الميلادى لاتزيد عن أوربا فى القرن الخامس قبل الميلاد لاتزيد فى ميزان التقدم العلمى شيئاً يذكر .

٣ — أدى ذلك إلى قيام صراع مرير بين رجال العلم فى أوربا وبين رجال الدين والكنيسة[1] .

٤ — استبدت الكنيسة وامتد طغيانها إلى العلماء من أمثال جاليليو وجرادنو وبرونو وكوبرنيك .

٥ — كان رد الفعل لدى العلماء الشك فى عقيدة الكنيسة ودينها وهاجموا من خلالها الأديان عموماً ومع التطرف والمغالاة أدى ذلك إلى إنكار الغيبيات والاقتراب من المادية البحتة والكفر بالإله يقول فولتير

(١) مصطفى حلمى ، دراسات فى الفكر الإسلامى ص ٣٠٤ .

(١٧٨٨ م) فى هذا المعنى : (إذا رأيت اثنين يتناقشان فى موضوع ولا يفهم أحدهما الآخر ، فاعلم أنهما يتناقشان فى الميتافيزيقا . .) إلى آخر هذه الموجة من السخرية [١] ! ! .

نعم لقد كانت الكنيسة فى العصور الوسطى وبداية العصر الحديث تسلك سياسة تناقض الأخلاق كما تناقض العقل تناقض الأخلاق بما آل إليه أمرها من استغلال العباد والسيطرة على رقابهم ونهب أموالهم بشتى الطرق رافعة شعارات سماوية تتناقض مع العقل كمسألة الغفران ومسألة استحالة الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه من جهة ومعاداتها لكل جديد يتوصل إليه الفكر الإنسانى .

إن هذه السياسة قد جعلت الكثير من أهل الفكر ينقسمون على الكنيسة ويكفرون بها بل إن كفرهم بها تعدى إلى الكفر بما تدعو إليه من مسائل الغيب باعتبار أن من فقدت الثقة به فى شىء فقدت الثقة به فى كل شىء فاعتبر لذلك هذا الدين الذى تدعو إليه الكنيسة إنما هو من باب الترهات والزيف [٢] .

يقول الشيخ أبو الحسن الندوى فى كتابه [٣] .

(ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه فى كتبهم المقدسة بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية وصبغوها بصبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التى يجب الاعتقاد بها

(١) بلقاسم الغالى ، مجلة المسلم المعاصر ص ٧٦ .
(٢) مرجع سابق رقم ١٠ ، ص ٢٠٣
(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوى ص ١٧٥ ، ط ١٣٨٥ هـ .

ونبذ كل مايعارضها وألفوا فى ذلك كتبا وتآليف وسموا هذه الجغرافية التى ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسيحية . وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل من لم يدن بها) ، بالإضافة إلى ذلك ظهور المكتشفات الهائلة نتيجة النهضة العلمية وما نتج عنها من الثورة الصناعية الأمر الذى ترتب عليه الكفر بالأديان عامة والثقة الكاملة فى كل انجازات العلم بحجة أن الحق والخير إنما يأتيان عن طريق القوانين العلمية وإذن فكل ماسوى العلم إنما وهم لاحق فيه ولا خير ومن ذلك الدين الذى لم يقدم للإنسانية ماقدمه العلم فى فترة قصيرة .

اختمرت هذه المعانى فى العقول وتضافرت فيها النقمة على الكنيسة وما تدعو إليه مع الانبهار بالعلم ونتائجه لتبرز فى شكل فلسفى ، خلاصته أن المادة هى الحقيقة الكبرى وكل ما وراءه من الغيب إنما هو زيف وكل مايقع فى الطبيعة وكل مايقع فى المجتمع وكل ما يقع فى النفس إنما هو راجع إلى سبب مادى وكل مايقوله رجال الدين عن القوى الغيبية إنما هو (صك لارصيد له فى المصرف) .

هذه التوترات أدت إلى تكوين مذاهب هدامة ما لبثت أن تسربت إلى العالم الإسلامى فى أشكال شتى وأساليب مختلفة تدعو إلى نكران الغيب وفتح المجال مع حرية الرأى أمام وسائل الإعلام داعية للتفلت وظهرت الأقلام المأجورة والدعاة للإلحاد المرتزقة وكان أبرزهم فى العالم العربى الدكتور شبلى شميل [١] : وظهر تيار ينادى بتقليد أوربا فى كل شىء لنصل إلى ماوصلوا إليه من التمدين والتحضر .

ورفعوا شعاراً مفاده ، أن أوربا تقدمت لأنها تركت الدين

(١) الاعلام الزركلى ج ٣ ص ٢٢٧

ظهريا وراءها ولهذا طالبوا أى هذا التيار — بالثورة على الدين لتتقدم حيث أن أوربا تقدمت بثورتها على الدين، وماعلموا أن أوربا غير بلاد المسلمين وأن دين أوربا يختلف عن ديننا.

وهؤلاء لم يفرقوا بين الدين أصلا وبين الذين أدعـوا تمثيله، إن اضطهاد رجال الكنيسة للعلماء أمر غريب فى ديننا إذا لم يثبت فى التاريخ أن عالماً اضطهد لقوله بنظرية علمية أو اكتشاف عقلى بل كل الاحترام والتبجيل للعلم والعلماء ولم تخل مجالس الحكام من جلسات العلماء ولم يكن عندنا فصل بين الدين والدولة وليس هناك تناقض بين أحكام كتابنا وما جاء به العلم كما سنوضح فيما بعد.

أهم الشبه المثارة حول انكار الغيبيات

١ — أنكار وجود الله :

الله هو الحق واليقين لذا لا نعجب أن المنكرين للغيبيات يسخرون من الذين يعتقدون بوجود إله يقول كارل ماركس (لاإله والكون مادة)، وأما لينين فيقول: ليس صحيحاً أن الله هو الذى ينظم الأكوان إنما الصحيح أن الله فكرة خرافية اختلقها الإنسان ليبرر عجزه ويقول ستالين: أن فكرة الله خرافة وإن الالحاد مذهبنا (١).

وهم ينكرون أيضاً بقية الغيبيات فهم ينكرون الجنة والنار والبعث والجن والملائكة.. إلخ، يقول جوليان هكلى (والآلهة والجن والأرواح وغيرها من الأشياء الصغيرة الروحية من عمل الإنسان وناشئة حتماً عن نوع من الجهل ودرجة من العجز أمام بيئته الخارجية) (٢).

وفى حوارى لابن أبى العوجاء مـع الإمام جعفر الصادق قال: « يا أبا عبد الله لقد قلت فأحلت على غائب.

وسأل الديصانى جعفر الصادق فقال: « تزعمون أن لنا خالقاً فدلنى عليه » (٣).

وقد حكى القرآن عن الكافرين فى إنكارهم الإله وكيف أن حجتهم تقوم على أنهم لايرونه وأنهم لا يؤمنون إلا بما يرونه قال تعالى: « وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتو عتوا كبيراً » (٤).

---

(١) الإنسان فى العلم الحديث، جوليان مكسلى ترجمة حسن خطاب النهضة المصرية ص ٢٢٣

(٢) رضا المطوف السمادى، الحياة بعد الموت ص ٩٩ دار الزهراء.

(٣) الفرقان آية: ٢٤. (٤) البقرة آية: ٥٥

وقال عن اليهود : « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة »[١] ، وقال : « فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة »[٢] .

ونحن المسلمين نرى أن هذه الأفكار هراء لا تقوم على عقل أو منطق لما يأتى :

لو أنكرنا وجود الله والملائكة والبعث والحساب والجنة والنار .. إلخ ، لمجرد أنها أشياء غير مادية وغير محسوسة لكان معنى هذا إنكار الكهرباء لأنها غير محسوسة والذي يحس فقط إنما هو أثرها وهذه أرواحنا السارية فى أجسامنا لانسمعها ولا نراها ولا نلمسها ولانشمها ولاتذوقها ومع ذلك فهى موجودة فينا حقاً نؤمن بها ونحرص عليها كل الحرص بل بها نحس وبها نفسر وفيها بقاؤنا .

ونحن وإن لم نحس بأرواحنا إحساساً ظاهراً فقد أمنا بها استدلالا من آثارها فينا بل علمنا بها أمر بدهى لايحتاج إلى دليل .

وهل يمكن للحواس الخمس أن تدرك وتعرف الأحاسيس بالحزن والفرح ، فالشقاء والسعادة أمر لايدرك بالحواس الخمس وإنما يدرك بشيء آخر هذا الشيء الآخر هو الذى به ندرك وجود الله بجانب الحواس الخمس التى بها نعرف الله بآثاره .

والحواس ليست بالمقياس الدقيق لتفسير وتقويم الآثار الخارجية كمقياس الحرارة ـ الترمومتر ـ المادى فهذه الحواس ترينا القمر بحجم الرغيف كما ترينا التقاء السماء بالأرض أو بالبحر عند خط الأفق[٣] .

---

(١) البقرة آية : ٥٥ (٢) النساء آية : ١٥٣

(٣) الإسلام أقوى ، محمد قلعجى ص ١٨٢

وإذا كانت الحواس ليست بالمقياس الدقيق إذن فهناك مقياس آخر غير الحواس هو الذى به أدركنا وجود الله .

وهل نعتبر عدم رؤية الكفيف للشمس دليلا على عدم وجودها ؟ إن « بعض الناس لايؤمنون بالله لمجرد أنهم لايستطيعون رؤيته ونسوا بأن عجزهم هذا ليس دليلا على عدم وجوده إذا علمنا أنهم يؤمنون تماماً بالإلكترون فنحن فى الوقت الحاضر نؤمن بكيانات لانعرفها إلا بآثارها كوجود بعض الجزئيات قبل الإلكترونات والبروتونات فهذه الجزئيات لايمكن ملاحظاتها »[١] .

إن الطيور المهاجرة تعرف طريقها بدون حواس[٢] .

ويقول العقاد[٣] عن هؤلاء الماديين : ويجيء الماديون فى الزمن الأخير فيحسبون أنهم جماعة تقدم وإصلاح للعقول وتقويم لمبادىء التفكير والواقع أنهم فى إنكارهم كل ما عدا المادة يرجعون القهقرى إلى أعرق العصور فى القدم ليقولوا للناس مرة أخرى إن الموجود هو المحسوس وإن المعدوم فى الأنظار والأسماع معدوم كذلك فى ظاهر الوجود وخافيه وكل ما بينهم وبين هيج البداءة من الفرق فى هذا الخطأ أن حسهم الحديث يلبس النظارة على عينيه ويضع المسماع على أذنيه ويحسبون على هذا أنهم يلتزمون حدود العلم الأمين حين يلتزمون حدود النفى[٤] .

---

(١) المرجع السابق نقلا عن مصير البشرية للكونت دى لوى ص ١٣٧

(٢) مصطفى محمود ، الله ص ١١٠

(٣) عباس محمود العقاد ، كتاب الله ص ٥٦ ط دار المعارف .

(٤) المرجع السابق ص ٥٦

ولابن حزم إفحام لهؤلاء الماديين يقول : هل تدرك حقيقة شيء عندكم من غير طريق الرؤية والمشاهدة أولا يدرك شيء من الحقائق إلا من طريق الرؤية فقط ؟

فإن قالوا إنه قد تدرك الحقائق من غير طريق الرؤية والمشاهدة تركوا استدلالهم وأفسدوه إذ قد أوجبوا وجود أشياء من غير طريق الرؤية والمشاهدة وقد نفوا ذلك قبل هذا فإذا صاروا إلى الاستدلال نوظروا فى ذلك إلا أن دليلهم هذا على كل حال قـــد بطل بحمد الله ، فإن قالوا لايدرك شيء إلا من طريق المشاهدة قيل لهم فهل شاهدتم شيئاً قط لم يزل؟ فلابد من نعم أولا فإن قالوا لاصدقوا وابطلوا استدلالهم وإن قالوا نعم كابروا وادعوا ما لاسبيل إلى مشاهدته إذ مشاهدة قائل هذا القول للأشياء هى ذات أول بلاشك وذو الأول هو غير الذى لم يزل لأن الذى لم يزل هو الذى لا أول له ولاسبيل إلى أن يشاهد ما له أول ما لا أول له مشاهدة متصلة فبطل هذا الاستدلال على كل وجه[1] .

وهكذا يلزم ابن حزم الماديين بالإيمان بما وراء الحواس وللماديين شبهات كثيرة يستندون إليها فى دعوى الإلحاد والإنكار ولوجود الله ، منها أن تعجز كما يقولون عن تصور كنه إله وراء الكون ومادامت العقول تعجز — كما يقولون — عن تصور إله وراء الكون فهو إذن غير موجود .

والواقع أننا نسلم بأن العقل لايستطيع أن يتصور أو يدرك كنه الذات الإلهية لأن العقل له حدود ينبغى أن يقف عندها وله مجال معين يستطيع أن ينتج فيه وهو العالم الطبيعى أما ما وراء الطبيعة فالعقل قاصر عن إدراك شيء منه بل إن العقل لايدرك من ظواهر العالم الطبيعى

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ١ ص ٢٦

أو الأشياء إلا ظواهرها وهذا ما قرره الفيلسوف الألمانى (كانت) فى قوله : « إن غاية ما يمكن للعقل أن يفعله من الأشياء هو عوارضها وآثارها » من ذلك مثلا الضوء فقد قرر العلماء له أحكاماً كثيرة فصلوها فى علم خاص به ولكن لم يستطع واحد منهم أن يفهم حقيقته أو كنهه كذلك لم يستطع الإنسان أن يعرف حقيقة أقرب الأشياء إليه وهى نفسه ولم يصل العقل إلى إثبات شتى حولها يمكن الاتفاق عليه وإنما مبلغ جهد الإنسان أنه عرف أنه موجود حى له شعور وإرادة .

وكل ما أحاط به من الحقائق الثابتة راجع إلى تلك العوارض التى وصل إليها ببديهته أما كنه شيء من ذلك فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به[1] .

وإذا كان العقل يعجز عن إدراك كنه الأشياء المادية فكيف يطمع فى أن يدرك كنه الحقيقة الإلهية ؟ وعلى هذا فإن عدم إدراك العقل لكنه الذات الإلهية لايعنى ولايستلزم عدم وجود هذه الذات ، إن الملحدين وقد بلغوا منزلة عظيمة فى العقل والعلم يعترفون بعجزهم عن معرفة كثير من أسرار الكون وحقيقة المادة التى بين أيديهم وحقيقة الحياة وحقيقة العقل والإدراك والوسيلة التى يتم بها الاتصال بين المادة والعقل فإذا كان هذا شأنهم فى معرفة أقرب الأشياء إليهم فهل يطمعون أن يصلوا بعقولهم إلى معرفة حقيقة الله ؟

وهل من المنطق أن يحملهم على إنكار وجود الله قصور عقولهم عن تصوره وإدراكه على الصورة التى تعودوا أن يدركوا بها الأجسام المادية؟

وقد رد على الملحدين أحد الفلاسفة المحدثين وهو الفيلسوف الألمانى

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ٥٤

ليبنيتز نقال لهم : إذا كانت عقولكم لا تتمكن من تصور هـذا الإله فلا يلزم من ذلك عدم وجوده إذ أن كثيراً من الحقائق لم يتمكنوا من تصورها حق التصور و تكون فى الحقيقة موجودة ويقوم الدليل العقلى على وجودها والجزم منكم بأنه لا يمكن وجود شىء متصف بتلك الصفات برىء من الجسمية والمادية قد نشأ معكم من (قياس التمثيل) بما أطلقتم عليه من الأشياء وهذا القياس ليس دليلا قاطعاً بل هو دليل خادع يخدع العقول حتى يجعلها تحكم على الشىء بأحكام غيره مع الفارق بينه و بين ذلك الغير فعدم اقتداركم على تصور حقيقة الله لا يفيد استحالة وجوده وقياسكم إياه على ماشاهدتموه فى العالم المادى هذا قياس مغلوط لوجود فارق بينهما .

ويكفى العقول أن تستدل على وجود الله بصفاته وآثاره ، وكل مافى العالم من وجود ونظام وإتقان وأحكام دلائل قاطعة على وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته[1] .

الصـــدفة :

ومما احتج به الملحدون على إنكار الإله والغيبيات أن هذا الكون لا يحتاج إلى موجد يوجده بل وجد هـــذا الكون صدفة دون تقدير ولا تدبير بل محض اتفاق فلا خالق وراءه . وهذه من أوهى الحجج .

الصدفة فكرة واستدلالا :

ماذا تعنى الصدفة ؟ تعنى فكرة الصدفة أن مبدأ الحتمية والسببية ليس مبدأ مطلقاً بل لا بد من إفساح المجال للاحتمال فى الظواهر الطبيعية .

(١) نديم الجسر ، قصة الإيمان ص ٢٠٦ .

فهناك فرق بين نوعين من الظواهر ، ظواهر يبدو أنها تخضع لقوانين تصدق دائمـــاً بحيث يمكن التنبؤ بحدوثها متى تحققت شروط وجودها وظواهر أخرى لا تخضع لأى قانون .

والظواهر الأخيرة هى المعبرة عن منشأ حصولها بالصدفة وذكر القائلون بجواز الصدفة فى حصول بعض الحوادث الكونية نماذج عديدة تأييداً أو تأكيداً لهذا الجواز .

منها : أنك تلتقى بصديق أو تعثر على سلعة دون أن تعمل للقائك به أو عثورك عليها ما يوجب اللقاء والعثور ومنها كثرة الكشوف والاختراعات التى حصلت على يد أصحابها بدون أى تصميم وتخطيط سابقين على حصول الاكتشاف مثل اكتشاف الكهرباء وأمثاله التى حصلت صدفة .

وقد أيد أنصار الصدفة ما يرومون تحقيقه بما أثبته علم الميكانيك الحديث وذلك على ضوء قوانين (نيوتن) فى الحركة فقد تحقق أن الحركة إذا حدثت ، تبقى وتستمر دون حاجة فى بقائها واستمرارها إلى سبب وإن ورأينا حركة لم تستمر فلذلك لسبب خارجى كضغط الهواء أو احتكاك الجسم المتحرك بالأرض أو غير ذلك من موانع الاستمرار التى لو أمكن للجسم المتحرك أن يتحرر منها لاستمرت حركته دون انقطاع وبدون سبب وإذا جاز استمرار الحركة دون سبب جاز حدوثها دون سبب وحيث جاز استمرار الحركة بل وجـــودها دون سبب جاز حدوث غيرها من الموجودات الأخر دون سبب أى (صدفة) .

ولذا يقول (هكسلى) :

لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها ملايين السنين فلا تستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة

التى كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات ظلت تدور فى المادة لبلايين السنين .

وبهذا الاستدلال !! أثبت هكسلى رجوع كافة تنوعات الكون إلى الصدفة .

أما عن أصل الكون كيف وجـــد ؟ فيجيبنا على هذا السؤال عالم أمريكى آخر إذ يقول :

إن نظرية الصدفة ليست اختراعاً منا ، وإنما هى نظرية رياضية عليا وهى تطبق على الأمور التى لا تتوفر فى بحثها معلومات قطعية وهى تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق وللتدقيق فى إمكان وقوع حادث من نوع معين وللوصول إلى نتيجة هى معرفة مدى إمكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة[1] .

وحيث إن السؤال عن كيفية وجود الكون وعن موجده ولم تتوفر لدى هذا العالم معلومات قطعية فلابد من القول بأن الكون وجد صدفة .

مناقشة القائلين بحدوث العالم صدفة

الصدفة لها مدلولان :

الأول : الصدفة فى القصد ، بمعنى أن الطبيعة تتكون من مجموعات من الظواهر التى تخضع كل منها لقوانين تحددها تحديداً ضرورياً .

وقد تتداخل هذه المجموعات — فى لحظة معينة — فتؤدى إلى نتائج غير متوقعة ، كما يحصل ذلك فى حال مرور رجل ذاهباً إلى عمله فيسقط

(١) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ص ١٠٦

عليه حجر من يد عامل يشتغل فى بناء عمارة فيؤدى هذا الحادث إلى أماتة الرجل المسكين .

إن مثل هذا الحادث حصل صدفة ، مع أنه وليد مجموعة من الأسباب الطبيعية ، فدواعى مرور الرجل ودواعى عمل العامل وصلابة الحجر وتكوين الإنسان وغير هذه الأسباب كلها هى التى حققت موت الرجل ولكن صح التعبير عن حصول هذا الحادث بـ (الصدفة) باعتبار عدم القصد فى تحقيق هذا الحادث .

ومن هذا النوع من مدلول الصدفة ما مثل به مدعوها من اللقـــاء بصديق والعثور على سلعة فى الطريق وغيرهما فإن الأسباب الطبيعية فى هذين الحادثين وأمثالهما متوفرة سوى أنك عندما غادرت محلك لم تكن قاصداً لقاء بصديق ولا الصديق قاصد لقاءك ولم تكن قاصداً أن تعثر على سلعة لك أو للغير ثم حصل لقاؤك بالصديق وعثورك على سلعة مع توفر كافة الأسباب الطبيعية فى ذلك سوى القصد ، ومثل هذا لا ينـــافى قانون السببية بحال ، ولو كان الأمر كما يدعون لصح لنا أن نبطل قانون الحتمية فى مسألة غليان الماء إذا بلغت حرارته (١٠٠° م) فى ضغط من الهواء قدره (٧٦ سم زئبق) بحجة أن الغليان حصل بوضع الحداد حديدته المحماه فى الماء لأجل تبريدها لا لغرض إغلاء الماء فحصل الغليان .

وإذا لم يكن الغليان مقصوداً فقد حصل وبدون سبب وهذا ما يأباه العلم والإنصاف .

ومن هذا القبيل أيضاً ، مامثل به القائلون بالصدفة من كثرة الكشوف والاختراعات ، فإن هذا ممـــا توفرت فيه الأسباب الطبيعية من ذهنية المخترع وانتباهه ووجود المواد وحركتها وغير ذلك مما لابد من توفره سوى أن المكتشف — حسب الفرض — لم يكن قاصداً لهذا الكشف

وإنما حصل تلقائياً ، والصدفة بهذا المعنى أجنبية عما نحن بصدده ، وهو كيف وجد العالم بعد أن كان عدماً ؟

الثانى : الصدفة فى الإيجاد : بأن يخلق الشىء بعد العدم بدون علة خارجية وهى بهذا المعنى مركز بحثنا وأحتجوا على جوازها بقانون نيوتن وإليك نص هذا القانون وتحليل النص :

« إن كل جسم يستمر على حالته من السكون أو الحركة بسرعة ثابتة إلا إذا أثرت عليه قوة غير متزنة » .

وخلاصة هذا القانون : إن الجسم الساكن لسبب ، يبقى فى مكانه ساكنا ما لم تؤثر عليه قوة تحركه وإن تحرك بسبب قوة حركته يبقى متحركاً بتلك القوة ما لم تؤثر عليه عوامل خارجية — من احتكاك أو جاذبية أو غيرهما .

وهذا فى نظر نيوتن لخاصية فى الأجسام تسمى (الاستمرارية) إذن إن نيوتن يربط بداية الحركة أو السكون بسبب ثم يعلل بقاء كل منهما بخاصية فى الأجسام يسميها (الاستمرارية) ، وهذا كما ترى يبان الصدفة تبايناً كلياً ولا يفوتنا ونحن بهذا الصدد أن نداعب (هكسلى) .

لأن فرضيته إلى المداعبة أقرب منها إلى الجد !!

نقول له : لو جلست مع القردة سابعاً وشددت عينيك دون سابق معرفة منك بحروف الطابعة وكيفية الضرب عليها فهل تستطيع أن تكتب اسمك فى ملايين السنين !!

هذا واسمك منظم من خمسة أحرف ، فكيف بالعمليات المعقدة فى الكون ؟

إن الصاروخ وهو مركب من ١٠٠٠٠٠٠ قطعة — على ما قل — ،

بحيث لو اختل ترتيبها الهندسى لما حصل انطلاقه ، وهو لا يمكن أن يوجد صدفة .

أما مخ الإنسان وهو من عمليات الكون المعقدة — مركب من ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ قطعة عصبية مرتبة ترتيباً دقيقاً ومؤدية لفعاليات عجيبة فهل وجد صدفة نتيجة لعمليات عمياء ظلت تدور فى المادة لملايين السنين كما تقول !!

إن العلماء لم يهملوا حساب احتمال وجود الشىء صدفة فقد ضرب العالم الأمريكى الشهير (أ . كريس موريسون) فى (كتاب العلم يدعو للإيمان) مثلا إذ يقول :

(لو تناولت عشر قطع وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة ثم رميتها فى جيبك وخلطتها خلطا جيداً ثم حاولت أن تخرج منها من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددى بحيث تلقى كل قطعة من جيبك بعد تناولها مرة أخرى ، فإمكان أن تتناول القطعة رقم (١) فى المحاولة الأولى هو ١٠/١ وإمكان أن تتناول القطعة رقم (١ ، ٢) متتابعين هو ١ / ١٠٠ وفرصة سحب البنسات التى عليها أرقام (١ ، ٢ ، ٣) متتالية هى بنسبة ١/١٠٠٠ وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من ١ — ١٠ هى بنسبة واحد من عشرة بلايين محاولة[1] .

ويقول (كاودم هاناواى) :

لقد اشتغلت منذ سنوات عديدة بتصميم مخ الكترونى يستطيع أن يحل بسرعة بعض المعادلات المعقدة المتعلقة بنظرية (الشد فى اتجاهين) ولقد حققنا هدفنا باستخدام مئات من الأنابيب المفرغة والأدوات

---

(١) العلم يدعو للإيمان ، كرسى موريسيون ترجمة محمود الفلكى ص ٨٩ — ٩٠

الكهربائية والميكانيكية والدوائر المعقدة ووضعها داخل صندوق، وبعد اشتغالى باختراع هذا الجهاز سنة أو سنتين وبعد أن واجهت كثيراً من المشكلات التى تطلبها تصميمه ووصلت إلى حلها، صار من المستحيلات بالنسبة إلى أن يتصور إعقلى أن مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأية طريقة أخرى غير استخدام العقل والذكاء والتصميم وليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم وبرغم استقلال بعضها عن بعض فإنها متشابكة متداخلة وكل منها أكثر تعقيداً فى كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخ الإلكترونى الذى صنعته فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجى الكيمى البيولوجى الذى هو جسمى والذى ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائى فى اتساعه وإبداعه إلى مبدع يبدعه[1].

ويقول عالم الطبيعة الدكتور (فرانك آلن) :

(..... ولننظر الآن إلى الذى تستطيع أن تلعبه المصادفة فى نشأة الحياة إن البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية وهى تتكون من خمسة عناصر هى : الكربون، والأيدروجين، والنيتروجين والأوكسجين، والكبريت، ويبلغ عدد الذرات فى الجزىء البروتينى الواحد (٤٠٫٠٠٠) ذرة .

ولما كان عدد العناصر الكيماوية فى الطبيعة (٩٢) عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكون جزئيا من جزئيات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطاً مستمراً لكى تؤلف هذا الجزىء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزىء الواحد .

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٩ — ١٠ ترجمة محمود الدمرداش .

وقد قام العالم الرياضى السويسرى (تشارلز يوجين جاى) بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لانتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزىء بروتينى واحد إلا بالنسبة واحد إلى (١٠)١٦٠ أى بنسبة واحد إلى رقم عشرة مضروباً فى نفسه مائة وستون مرة وهو رقم لايمكن النطق به أو التعبير بكلمات وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم حدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزئيا واحداً أكثر مما يوجد فى هذا الكون بملايين المرات .

ويتطلب تكوين هذا الجزىء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لاتحصى من السنوات قدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها ٢٤٣ مرة من السنين وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتألف كل هذه المصادفات لكى تبنى جزئيا بروتينياً واحداً .

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما حل فيها ذلك السر العجيب الذى لا تدرى من كنهه شيئاً[1] .

ولتعلم أن الحساب السابق لتكوين الجزىء البروتينى الواحد مع ما يصل إليه من البعد ، لايعنى لأبدية حصول الجزىء عند حصول تلك المعادلات فى تلك المدة السحيقة ، بل من الممكن حتى بعد ذلك أن لايوجد الجزىء الداخل فى تركيب الخلية .

ولهذا يقول العالم الفرنسى (الكونترى نواى) ما تلخيصه .

إن مقادير الوقت لكمية المادة والفضاء اللانهائى التى يتطلبها حدوث مثل هذا الإمكان هى أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودتين الآن

(١) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، ص ١١١

وأكثر من الوقت الذى استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض وإن حجم هذه المقادير التى سنحتاج إليها فى عملية (تكوين جزىء بروتينى) لا يمكن تخيله وتخطيطه فى حدود العقل الذى يتمتع به الإنسان المعاصر فلأجل وقوع حادث على وجه الصدفة من النوع الذى ندعيه سوف يحتاج كونا يسير الضوء فى دائرته (١٠/٨٢)^١٠ سنة ضوئية أى (٨٢ صفراً إلى جانب ١٠ سنين ضوئية) .

وهذا الحجم أكبر بكثير جداً من حجم الضوء الموجود فعلا فى كوننا الحالى ، فإن ضوء أبعد مجموعة للنجوم فى الكون يصل إلينا فى بضعة ملايين من السنين الضوئية فقط .

وبناءاً على هذا فإن فكرة آينشتاين عن اتساع هذا الكون لا تكفى أبداً لهذه العملية المفترضة .

أما ما يتعلق بهذه العملية المفترضة نفسها ، فإننا سوف نحرك المادة المفترضة فى الكون المفترض بسرعة خمسمائة تريليون حركة فى الثانية الواحدة ، لمدة ٢٤٣ × ١٠^١٠ بليون سنة أى ٢٤٣ صفراً إلى يمين عشرة بلايين سنة ضوئية ، حتى يتسنى حدوث إمكان وجود جزىء بروتينى يمنح الحياة[1] .

ويقول دى نواى : لابد أن لا ننسى أن الأرض لم توجد إلا منذ بليونين من السنين . وأن الحياة فى أى صورة من الصور لم توجد إلا قبل بليون سنة عندما بردت الأرض هذا وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه : وأثبتت الدراسة فى هذا الموضوع أن كوننا موجود منذ خمسة بلايين سنة وهى مدة قصيرة حتى لا تكفى على أى حال لخلق إمكان وجود الجزىء البروتينى بناء على قانون الصدفة الرياضى[2] .

(١) المرجع السابق ، ص ١١٢

(٢) المرجع السابق ، ص ١١١

ويقول البروفيسور (إيدوين كونكلين) :

(إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقى شبيه فى مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم ، نتيجة انفجار صدفى يقع فى مطبعه[1] .

هذه آراء بعض العلماء فى مسألة الصدفة وكأن القائل بها إذا أعجزه تفسير حادث من الحوادث كان قوله الصدفة أهون عليه من الاعتراف بالجهل ولذا قال العالم الأمريكى (وهى أى الصدفة — تطبق على الأمور التى لا تتوفر فى بحثها معلومات قطعية)[2] .

ومن جهة أخرى فإن تجويز الصدفة يتنافى وقانون العلية كيف وإنكاره ينسف كافة القوانين العلمية المبتنية على تعليل الظواهر بأسبابها الخاصة ونتيجة ذلك الجهل المطلق حتى فى الوجود المادى .

فما دامت الصدفة ممكنة فمن الممكن أن يكون إحساس بما يسمى بالموجودات الخارجية قد حدث فى ذهن الصدفة بدون أن يكون انعكاساً لواقع خارجى وبسبب وجودات مادية خارج وعى ، ومال ذلك إلى المثالية أو الشك المطلق وهذا باطل .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه تم القبض على متهم بنشر مقال مخل بالأمن العام ، وقدم إلى المحاكمة فكان دفاعه : بينما أنا جالس فى مكتبى . وإذا بحروف برزت من خزانة الحائط كحروف آلة الطابعة ثم أخذت بالانطلاق نحو محبرة كانت على المنضدة فانفتحت المحبرة ودخلتها الحروف واحداً تلو الآخر وبعد تلوث كل حرف يخرج فيتجه نحو خزانة كانت فى زاوية فيها ورق أبيض وإذا بالأوراق البيض المخزونة

(١) المرجع نفسه ص ١٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١١١ .

هناك تخرج واحدة بعد أخرى و تضرب عليها الحروف بانتظام حتى إذا اكتملت طباعة ورقة تقدمت أخرى بنفس العملية التى تمت بها طباعة الأولى وبعد نفاد الورق وكمال طباعته اتجهت الأوراق كسرب الطيور إلى خارج المكتب إلى الشارع حيث التصقت على أعمدة الأسلاك والجدران بالصورة التى شوهدت عليها مكتوباً عليها المقال الذى اتهمت بنشره !! .

إن هذه الإفادة غير معقولة ولا مقبولة إلا لدى المعتوهين ، لا لشيء سوى أن صاحبها يدعى صيرورة حدث بسيط — نشر مقال صحيفة واحدة — دون تمامية علته ، مع حصول معظم مقومات نشر المادة ، المادة التى يمكن وجود الحروف منها المداد الورق غير أن تنظيمها بالشكل المطلوب يحتاج إلى أشياء وراء ما كان متوفراً لهذا كانت الإفادة غير مقبولة فكيف ينتظم الكون وما فيه من أنظمة أقل مايقال فى أقلها أنه أصعب تعقيداً وأدق نظاماً من كتابة صحيفة واحدة ثم كيف يوجد بعد أن كان عدما من دون أية علة سابقة عليه لامادية ولا صورية ولا غائية ولا فاعلية ، إن هذا إلا كلام يصدر بلا روية أو بدواعى خاصة أصحابها أعرف بها[1] .

وقصة أحد الملاحدة مع أحد علماء الإسلام مشهورة[2] ففى مجلس من مجالس بغداد تواعد الملحد والعالم فى ساعة محددة ، فحضر الملحد ولم يحضر العالم وبقى الجميع فى الانتظار ساعات حتى كادوا ينفضوا وإذا بالعالم يدخل محيياً ويعتذر عن تأخيره بسبب عجيب فلما سألوه عن السبب قال لما انتهيت إلى ضفاف دجلة وأنا فى طريق إليكم رأيت شجرة

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ترجمة محمود الدمرداش ص ٥٨ .
(٢) أحمد الشرباصى ، الأئمة الأربعة ص ٥٨ .

ضخمة تهوى إلى النهر من تلقاء نفسها ثم شاهدتها تتقطع قطعاً متشابهة متشابكة منظمة ثم أبصرت هذه القطع تتلاقى و تتلاحم على شكل زورق ثم سال عليها القار ودخلت فيها المسامير فأصبحت زورقاً جميلا رائعاً ثم رأيت هذا الزورق يقف عند الضفاف من تلقاء نفسه فإذا ركب به الناس سار بلا مجداف ولا سائق حتى وصل بهم إلى الجانب الآخر ، فإذا ركب الناس من ذلك الجانب سار بهم إلى الجانب الأول وهكذا . وكان هذا هو العجب الذى رأيته وسبب لى التأخير وما أن أتم كلامه حتى ضحك الملحد بسخرية واستهزاء قائلا إنى لآسف من تضييع الوقت فى انتظار هذا الرجل الأحمق السخيف فالتفت إليه العالم وقال إذا كان هذا غير ممكن عقلا ومعتقده أحمق سخيف فكيف بوجود الأرضين والسموات والكواكب والكائنات[1] .

الطبيعة :

فقد احتج الملحدون على إلحادهم وإنكارهم لذات الله بالطبيعة حيث قالوا إن الكون لايحتاج إلى خالق بل الطبيعة ولا شيء غير ذلك .

— فالعلم قد فسر لنا الأحداث والظواهر تفسيراً صحيحاً وإن مايحدث فى الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون عام هو قانون الطبيعة فإذن الكون لايحتاج فى نظرهم إلى افتراض إله يدير شؤون الكون وأحداثه .

تفنيد هذا الزعم :

الواقع أن زعمهم بأن الحوادث تحدث طبقاً لقانون الطبيعة وأنه

(١) محمد حسين آل ياسين ، الله بين الفطرة والدليل ص ٩ ط ١٣٩٨ هـ

لاحاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلهاً مجهولا زعم خاطىء ولا يمكن أن يسلم لهم وإذا كنا نسلم معهم بأن العلم كشف كثيراً من أسرار السكون وأوضح لنا القوانين العلمية فإننا لانعتبر ذلك تفسيراً لظواهر الكون وأحداثه كما يزعم وإنما هو تفصيل وشرح لهذه الظواهر والأحداث بمعنى أن العلم لا يستطيع أن يكشف عن السبب فيما يحدث .

ولتوضيح ذلك نقول إن كل الظواهر لها قوانين طبيعية وقد اكتشف العلم كثيراً من هذه القوانين كقانون الجاذبية وقانون التمدد بالحرارة والإنكماش بالبرودة وغير ذلك وهذه القوانين لاتؤثر من نفسها بل لابد لها من قوة عليا تهيمن عليها وتوجهها وهذه القوة هى الله .

إن الملحدين عندما يعجزون عن تفسير شيء ينسبونه إلى قانون عام يسمونه « قانون الطبيعة » وهو عندهم — الحركات الداخلية للقوى الطبيعية والكيمائية فإذا ما قيل لهم : كيف تكون هذه القوى هادفة ومدبرة وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور فى الهواء ويعيش السمك فى الماء ويوجد الإنسان فى الدنيا ويسيطر على ظواهرها الطبيعية ؟ فإنهم يعجزون ولا يجدون جواباً .

إن هؤلاء الماديين يقرون فى دعواهم هذه إن هذا الكون لابد له من موجد والدليل على ذلك أنك لو سألتهم .

من خلق السموات والأرض والشمس والقمر ؟ .

من أوجد هذا الكون وما فيه من عجائب وأسرار ؟ .

يقولون لك : الطبيعة .

من أوجد هذا الكون وما فيه من عجائب وأسرار ؟ .

يقولون لك : الطبيعة .

من دبر هذه الأمور الفلكية والحيوية والغريزية ؟

يقولون لك : الطبيعة .

إذن فالطبيعة فى نظرهم إله العصر المزعوم فهى الموجدة وهى الخالقة .

وهؤلاء الطبيعيون يشتركون مع المؤمنين فى قضية الموجد للكون فهم يقولون الطبيعة والمؤمنون يقولون إنه الموجد للكون هو الله سبحانه وتعالى .

وفى البداية نسأل عن ماهية هذه الطبيعة المزعومة إلهاً ؟ .

وما هو مفهومها وما هى حقيقة تأثيرها فى الوجود ؟ .

قال علماء اللغة : إن الطبيعة معناها الخلق والسجية وعند الماديين لايخلو مفهومها من خلال كلامهم من أحد مفهومين :

الأول : أنها عين الأشياء — أى عين ذواتها — فالحيوان والنبات والجماد كل هاتيك الكائنات هى ذات الطبيعة[1] .

الثانى : أنها عبارة عن الخصائص المستكنة فى الأشياء والصفات القاهرة فيها ومن هذه الصفات : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والملاسة والخشونة ومن خصائصها خصائص القابلية من حركة وسكون وكون وفساد ، ومن تزاوج وتوالد واغتذاء وغير ذلك .

فهذه الخصائص وتلك الصفات هى الطبيعة ولا تخرج عن أى من التفسيرين فهى إما ذوات الأشياء أو خصائص وصفات الأشياء .

ولو أخذنا الطبيعة بالمفهوم الأول لوجدنا أن الحاصل هو أن الأرض

(١) يوسف كرم ، كتاب الطبيعة ص ٨ .

خلقت الأرض أو السماء خلقت السماء والجمادات صنفت نفسها[1]، وهذا خروج على قوانين العقل وأهمها قانون السببية الذى اعترفوا به إذ أن السبب غير المسبب والفاعل غير المنفعل والسبب سابق على المسبب والمسبب متأخر عن السبب ولكن كلامهم هذا يستلزم أن يكون السبب هو عين المسبب وأن يكون الشيء متقدماً ومتأخراً فى آن واحد فهو متقدماً باعتباره سبباً ومتأخر باعتباره مسبباً — فكأننا نقول أن كل كائن أوجد نفسه وفى كل كائن فى الوسع أن نقول عنه . أنه الخالق والمخلوق والحادث والمحدث وهو كلام لايقوله الأطفال فضلا عن العقلاء والعلماء .

وللطبيعة أسرار خاصة مودعة فى الكائنات الموجودة أودعها من جعل فيها هذه الخصائص :

فإن المهايا والحقائق مجعولة بجعل جاعل لا أنها جعلت نفسها وهنا يحق لنا أن نسأل من الذى وضع هذه الصفات ومن الذى حدد هذه القابليات ؟ ؟ .

من ذا الذى وضع فى الحبة قابلية الانتفاخ والانفلاق حين توضع فى الماء والتراب ؟ ومن الذى أخرج منها الجذور والسيقان ؟ .

ومن الذى أعطاها قابلية الإثمار ؟

لو قلنا هى بذاتها ؟ فإن هذا احتمال غير صحيح لأنها لاتملك لنفسها البقاء ولا الحياة .

أو أن الذى وهبها هذه الخصائص هو أمر خارج عن ذاتها وصفاتها

(١) سعيد حوى الله ص ٩١

وهو المؤثر فيها بهذه الانفعالات أم أن الذى وهبها هذه الخصائص هى الصدفة التى فعلت بها هكذا ؟ .

وفى الحق أن الصدفة غير عاقلة فهى بكماء عمياء صماء لاتستطيع التدبير والإبداع والخلق وكذلك الحبة ليست عاقلة ولامدبرة وإلا فلماذا لاتدفع عن نفسها ضر من يقطعها أو يفتك بها ؟ ثم لماذا لاتنفتح أكثر من الحجم اللازم للإنبات أو لماذا لاتضمر وتجمد بدلا من أن تنمو وتخضر.

ولكن ربما هناك من يقول إن الماء هو الذى نفخها وهنا نستطيع أن نقول هل يستطيع الماء أن ينفخ فى الحديد ويفلقه ؟ اللهم لا .

إننا نلمس بالفطرة أن وراء هذه الظاهرة وكل مثيلاتها عقل مدبر حكيم وقد يدع مدع ويقول إن النبات طبع هكذا تنتفخ الحبة ثم تنفلق ثم تنقسم خلاياها بميل فيها إلى التوالد والإنقسام .

ولكن هذا زعم يرد عليه عدة استفهامات منها : ما هو السبب والأسباب التى جعلت الحبة تسير إلى هذه الأطوار المنتظمة من طور الإنبات إلى مرحلة الطفولة ثم آزر شطأه فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع إلى تمام النضج والإثمار ؟ ولماذا لايصلح فيه عكس مايصلح لإثماره ؟ .

إن صاحب هذه النظرة اقتصرفى نظره على وصف الظاهر دون إدراك المؤثرات والأسباب ثم إنه قد جعل الصفة المنفعلة سبباً فاعلا والقابلية للتأثير أمراً مؤثراً والظاهرة المجهولة — وهى كونها جبلت هكذا — عاملا مكوناً .

فإن الانتفاخ صفة وجدت عن مؤثر خارج عن ذات الحبة وكان التأثير بعد قبولها لذلك .

أما الانفلاق والامتداد فى الجهات المختلفة ومرورها بأطوار نموها كل هذه صفات فى حياة النبات والذين يزعمون الطبيعة إلهاً لم يزيدوا على أن جعلوا الخصائص والصفات والأعراض سبباً فى الخلق وجعلوا مقولة الانفعال سبباً ومدركاً لتكوين الأشياء .

وإذا كانت الطبيعة لاتدرك ولا تعقل فهى من القول بالمصادفة البحتة والمصادفة من غير شك ليس لديها إدراك ولا عقل وإذن فلا بد من التساؤل عن الذى أودع الحياة فى الحبة فضلا عن التنظيم المحكم لهذا الكون فى جميع مظاهره العلوية والسفلية فمن البذور بذر الحنظل ومنه بذر التفاح وإنا لنضع كلتا البذرتين فى أرض واحدة وتسقيان بماء واحد فى مناخ وظروف واحدة ومع ذلك فإن كل واحدة منهما تنتج ثمراً يختلف فى لونه وطعمه ورائحته عن الأخرى فضلا عن الاختلاف فى الشكل والنمو لكلتا الثمرتين .

نعم هناك تساؤلات كثيرة يثيرها العقل ولا يستطيع أحد أن يكفه عن ذلك فيمكن أن يقال : كيف تمتص جذور النبات الماء وتصطفى ذرات بعينها وتنضجها وتسوقها إلى الثمر وتكون العصارة وتنشىء الحلاوة فى بعض والمرارة فى بعض آخر فما هو سبب هذا وغيره ؟ ولا ينبغى أن نقف عند الوصف أو الخاصة وكل ذلك أعراض لاذاتية فيها وليس فى أى منها خاصة الخلق ثم ما هى حقيقة تلك الطبيعة ومن الذى طبع الأشياء فيها وكيف هو تأثيرها ؟ وهل هى تبدع أم تصنف وتركب ؟ وهل هى فاعلة بذاتها أو منفعلة بغيرها ؟ إننا نرى الطبيعيين قد نقلونا من مجهول واحد إلى مجاهيل عدة ونقلونا من أصل ترجع إليه جميع الأسباب وهو مصدرها إلى أمور لا تحسم الأمر فبدلا من أن تصوب النظر إلى خالق الحبة والحيوان والنبات نقصر النظر إلى صفات منفعلة ليس لها من القدرة

على الخلق أقل نصيب[1] .

إن الطبيعة صماء لا تسمع وأنتم تسمعون فمن أين جاء لكم السمع ومن تدعون أنها قد خلقتكم فاقدة له .

إن الطبيعة لا تعقل وأنتم تعقلون .

إن الطبيعة لا إرادة لها ولا إختيار وأنتم مريدون .

إن الطبيعة بكماء لا تتكلم وأنتم تتكلمون .

إن الطبيعة تحتوى على كل صفات النقص وأنتم كاملون فمن أين لكم بهذا الكمال ؟

وهل يكون المخلوق أسمى من الخالق ؟

وهل فاقد الشىء يعطيه ؟

إن الجواب على ذلك مرهون بمدى ذكائكم .

ياهؤلاء :

إن الطبيعة مخلوق لاخالق ومصنوع لا صانع ومنفعل لا فاعل فأنتم الذين تتحكمون فيها بعلمكم وفكركم وتسخرونها فى خدمة أغراضكم .

إن الأمر يحسم بقوة إذا تأملنا عن وعى آيات من كتاب الله هى قوله تعالى : (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون)[2] .

---

(١) د / محمد أبو الغيط ، مقال فى حولية كلية أصول الدين بعنوان الإسلام والفكر المادى ص ٩٢ — ٩٣

(٢) سورة الأنعام ، آية ٩٥

وبذلك نخرج من النظر فى أمور مجهولة إلى أمر واضح معلوم هو الله الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شىء قدير .

فما فى الطبائع من أوصاف وخصائص لا تعدو أن تكون أسباباً تعضد الأسباب المذكورة فى سلسلة الأسباب والمسببات ، إن الذى ضم الصفات فى الكائن والخصائص إلى بعضها وظن أن مجموعها يكون فى خياله إله الموجودات فأقبل عليه طائعاً وأسلم له خاضعاً من بعد أن صنعه بيده شأنه كعابد الوثن يصنعه ثم يتخيل أنه ينفع ويضر ثم يعبده .

وما أشد التشابه بين من كانوا يعبدون الأصنام من قبل ويناقشون عنها ومن يعبدون الطبيعة اليوم ويجادلون عنها .

فالدوافع النفسية واحدة ونوعية الخطأ واحدة وهو الاصطناع فى أول الأمر ونوهم الاستقلال والتأثير فى آخره والقرآن الكريم يشير إلى أن هؤلاء جميعاً وإن تعددت نظرياتهم فى إدعاء إلاهية الطبيعة فى كل ذلك سواء وما هى إلا أسماء يسميها الملحدون ولكنها لا قيمة لها ولا فاعلية ولا تأثير يقول الله تعالى : (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[1] .

ونستطيع أن نلخص القول فى الطبيعة المزعومة (إلهاً) بأنها إما أن تكون حدثت بذاتها وهذا باطل بداهة لاستحالة حدوث الشىء من غير محدث وإما أن صفاتها تخلق ذاتها وهذا بين البطلان حيث أن الذات قد عجزت عن خلق نفسها فهل الصفة تخلق الذات ؟ إنه لا يقول بذلك عاقل .

(١) سورة يوسف ، آية ٤٠

أو نقول إن وجودها من خارج عنها وهو مصدر كل أسبابها وإليه ترجع جميع الأسباب إنه الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وهكذا نجد أن الطبيعة إله العصر المزعوم لم تثبت أمام البرهان العقلى والنقد العلمى وليست بالنسبة للمخلوقات سوى صفاتها وقوانينها التى تجرى عليها وأن صفات الأشياء لا توجدها وخصائص الموجودات لا تخلقها[1] .

إذن ليس لنا إلا أن نقر فى النهاية بوجود مبدع حكيم وهو الله سبحانه وتعالى .

فالاحتجاج بالطبيعة أمر منقوض[2] وباطل بل أن أصحابها المرددين لها لا يعرفون معناها وهذه مشكلة المشاكل بل هذا كافية فى الرد عليهم ، يقول الشيخ نديم الجر : (زعم بعضهم أن أصل الحياة كرية سحرية بسيطة ذات خلية واحدة وزعم آخرون أن الحياة عبارة عن كتل زلالية حية صغيرة هى أدنى من ذات الخلية الواحدة وابسط لذلك سموها (مونيرا) أى الوحدة البسيطة فى اليونانية وزعموا أنها تتكون من الجماد (بالتولد الذاتى) ومن أشهر القائلين بذلك العالم الألمانى آرنست هيكل يقول هيكل إن الكون مؤلف من المادة والمادة مؤلفة من الذرات ومن هذه المادة ظهر كل ما فى الكون .. وحركة العالم هى حركة تطور دائم يبتدىء من أبسط الذرات وينتهى إلى أرقى الكائنات فهذه الكائنات كلها حيها وجمادها تتألف من عناصر واحدة لا فرق فى ذلك بين حى وغير حى لأن عناصر المواد العضوية موجودة بذاتها فى المواد غير العضوية ، وإن بالإمكان تحضير بعض مركبات عضوية بطريقة صناعية وعلى هذا الأساس

(١) د / شوقى إبراهيم على عبد الله ، دراسات فى العقيدة ، ص ٨١
(٢) المرجع السابق ، ص ١١٨

يقول هيكل أن أبسط أنواع الحيوان نشأت من مادة غير حية بطريق التولد الذاتى[1] .

إن أصل الحياة نشأ من توازن نسبى بين مقادير خاصة من العناصر المادية لكن هذا التوازن دقيق جداً إلى حد أنه قد يكون نقص جزء واحد من أحد العناصر سبباً فى نشوء الحياة أو تعطل نشوئها .

والماديون يقفون عاجزين عن تفسير سر نشأة الحياة الأولى من الجماد يشير إلى ذلك بنجفر فيقول (إن البت فى أمر التولد الذاتى للكوية الأولى التى نشأ عنها الأصل الأول غير متيسر لأن الأحوال المناسبة لتولد الكريات الأولى تولداً ذاتياً غير معروفة والكوية ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورهما من الجماد مباشرة بل إن ظهورها من الجماد ليعد فى نظر العلم معجزة ليست أقل بعداً عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجماد رأسياً[2] .

ومما ينقض نظرية التولد الذاتى :

(ا) اعتمادها على الصدفة والصدفة منقوضة .

(ب) كيف عرف هيكل هذا ؟ هل كان حاضراً ورأى ذلك قبل ملايين السنين ؟ أنه مجرد تخمين بنى على الظن !

(جـ) هل فعل ذلك عليا .

(د) المواد غير العضوية التى أدعوا أن منها الحياة موجودة فلم لا يحاولون .

(١) نديم الجسر قصة الإيمان ، ص ٥١
(٢) المرجع نفسه ص ٤٩

(هـ) من الذى أوجد المواد الأولية وقدر لها مقادير معلومة[1] .

ويفسر بعض الطبيعيين الحياة بأنها جاءت من كواكب أخرى على شكل جرثومة أو يقولون إنها وصلت إلى الأرض عن طريق نيزك أصاب الأرض وهذا كلام لا يستند على دليل بل هو خرافة لا تستند على برهان بل هو مجرد ادعاء والدعوى بدون دليل ساقطة ثم كيف إستطاعت الجرثومة أن تبقى على قيد الحياة فى درجة الصفر المطلق فى الفضاء وكيف نجت من الاشعاع الذى يقتل أمثالها ، وإذا بقيت حية فكيف وجدت لها المكان المناسب ، وكيف وجد هذا الاتفاق المدهش؟ وكيف سلمت رغم الاشتعال الذى يحصل عندما يصطدم النيزك فى جو الهواء ، وإذا سلمنا بكل ما سبق فكيف بدأت على الكوكب الأول .

وهذا السؤال الأخير هو عقدة العقد الذى حير الملاحدة فقد ظنوا أنهم توصلوا إلى الإجابة الذهنية للقضية لكنهم وجدوا أنفسهم أمام لغز لا يحل إلا بالإقـــرار بالخالق العظيم الذى هو ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ من سورة الأنعام .

(١) سعيد حوى الله ص ٤٠

الكيمياء قادرة على خلق الحياة

بزعم بعض الملحدين أن الكيمياء العضوية قادرة على خلق الحياة إذا توافرت الأسباب والمدة الزمنية . ومن الممكن تفنيد هذا الزعم بأنها لم يخلقوا شيئا ولا يمكن أن يخلقوا شيئاً مهما صغر قال : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب »(١) .

ومن المقرر أن من يعجز عن خلق الذباب أو استرداد مايسلبه الذباب منه فإنه عن خلق غيره أعجز .

نعم قد حاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيمياويا وذلك فى زعمها كدليل تثبت به مذهبها الإلحادى وكان أن كلفت بهذا الموضوع (أوبارين) رئيس المعهد الكيميائى فى الاتحاد السوفيتى وطلبت منه أن يتفرغ للبحث فى أمر واحد وهو مدى إمكانية إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائى وبعد عمل متواصل قارب عشرين عاماً أعلن حوالى سنة ١٩٦٢ م عن انتهائه من دراسة هذا البحث وأعلن عن النتيجة التى توصل إليها فى تقرير رسمى أذاعته جميع وكالات الأنباء فى العالم إذ ذاك وهى أن العلم الكيميائى عاجز عن إيجاد الحياة فى المختبر والعلم لا شأن له إلا بالمادة الحيية(٢) .

---

(١) سورة الحج آية .

(٢) سعيد حوى الله ص ٣٩ .

أزلية الكون

الماديون لا يعتقدون بأن للوجود خالقا بل يقولون كل مافى الكون أزلى والنواميس الطبيعية نشأت على سبيل الصدفة والإتفاق وبلغت ما بلغته من الكمال والاتقان عن طريق التطور ، ويقول الماديون بقدم المادة وأنه لا موجد لها ولا محرك وأن هذه المادة متطورة باستمرار ، وان الكائنات الحية نتيجة لهذا التطور وأبرز مظاهر هذا التطور هو الإنسان(١) .

ويقول الماديون إن هذا الكون والموجودات لاخالق لها ولا مدبر وإنما أجزاء الكون بما فيها الإنسان آلة تتحرك بذاتها وفى اليوم الذى ينتهى فيه التعاون بين المادة والطاقة يختل فيه هذا النظام . فالعين ليست للنظر وإنما نتيجة لترتيب خاص للمادة يوجد فى العين . والمخ بأداة للفكر والتأمل والشعور والعاطفة وإنما تفرز الأفكار والعواطف والإرادات من مادته كما تفرز الصفراء من الكبد ويفرز البول من الكلية ولا مبرر للشعور بالحاجة إلى الآخرة لأن الكون ونظامه يجرى بلا هدف ولا غاية بل طبيعة عمياء لاعلم لها ولا شعور .

كلام الماديين فى أن الإنسان آلة وأنه يتحرك طبقاً للعلاقة بين المادة والطاقة فهذا أيضاً غيب لم يطلعوا عليه بل مهرب تعودناه منهم ليفسروا الكون بلا محرك ؟ .

ولكن من أوجد هذه الآلة المادة وهذه الطاقة ؟ ومن الذى وضع ورتب العلاقة بينهما .

---

(١) د . عبد المنعم النمر ، الإسلام والمبادىء المستوردة ص ٤٦ ط ١ سنة ١٣٨٠ هـ .

وقد زلت ألسنتهم فأشاروا إلى قيام الساعة بتفسيرهم الذى يسمونه علميا بقولهم إن النظام يختل إذا بطل التعاون بين المادة والطاقة (١) .

وهاهم يؤلهون المادة فيرجعون كل شيء إليها وما أقبح كلامهم حول الفكر إذا اعتبروه يفرز كما يفرز البول من الكلية وهذا الكلام قد نقبل به إذا تحدثنا عن فكرهم إذ هو كالبول أو أدنى أما الفكر السليم الصافى فهذا مالا تدركه أفكارهم وعقولهم .

ثم من الذى قال لهم إن الكون يسير بطبيعة عمياء ؟ أومن يشاركهم فى هذا ؟ لابد أنهم ينظرون بعيون غير عيون البشر إن الناظر فى ظواهر الكون المختلفة يجد الإحكام والاتقان والتدبير وقد أشار إلى ذلك سيد قطب فى تفسيره إذ يقول . وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة فى كل شيء فى هذا الوجود يشهد بها كل شيء فى رحاب الوجود من الكبير إلى الصغير ومن الجليل إلى الحقير كل شيء سوى فى صنعته كامل فى خلقته معد لأداء وظيفته مقدر له غاية وجوده وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق. الذرة . بمفردها كاملة التناسق فى كهاربها وبروتوناتها والكتروناتها شأن المجموعة الشمسية فى تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والاستعداد لأداء ، وظائفها شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة (٢) .

وقد أشار كريسى موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك مظاهر الإتقان والإحكام فى الكون بقوله :(إن الطيور لها غريزة العودة : إلى الموطن . فعصفور الهزاز الذى عشش ببابك يهاجر جنوباً فى الخريف

(١) مرجع سابق رقم ١٨ ص ٢٧ .

(٢) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٨٤ ط ١٣٩٨ هـ .

ولكنه يعود إلى عشه القديم فى الربيع التالى وفى شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا إلى الجنوب وقد تقطع فى الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار ولكنها لا تضل طريقها وحمام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليه فى رحلة طويلة داخل قفص يحوم برهة ثم يقصد قدما إلى موطنه دون أن يضل . . والنحلة تجد خليتها مهما طمست الرياح فى هبوبها على الأعشاب والأشجار (١) .

وبالإضافة إلى ذلك هناك عملية التمثيل الكلوروفيلى وعمليه التنفس فالإنسان يخرج ثانى أكسيد الكربون ويأخذ الأكسجين خلال تنفسه بالشهيق والزفير بينما النبات يأخذ ثانى أكسيد الكربون الأكسجين خلال عملية التمثيل الكلوروفيلى ولابد لنا لنتصور حكمة الله كيف لو أن الإنسان والنبات قاما بعملية واحدة وهى التنفس مثلاً أو التمثيل الكلوروفيلى . إذن لامتلأ الكون بغاز واحد فلو أخذ الإنسان الأكسجين وأخرج ثانى أكسيد الكربون وكذلك فعل النبات لامتلأ الكون بثانى أكسيد الكربون وهنا يحدث اختناق للكائنات الحية .

لكنها حكمة الله التى تفند دعوى كل مكابر ؟

ومع الدلائل والآيات العجيبة إلا أن الملحدين يصرون على أن المادة هى كل شيء وأنها قديمة وأنها تطورت بالقوانين الجدلية الباطنة فى المادة دونما عوامل خارجية .

فبدأوا بافتراض أولية المادة (وهو خطأ) تسلسلا من الزمن الماضى إلى آجال سحيقة إلى أن يصلوا إلى الأزل أو اللانهاية .

(١) مرجع سابق رقم ٣٤ ص ١١٣ ترجمة محمود صالح الفلكى .

وقد أثبت العلم خطأ هذه الفكرة — أزلية الكون — يقول أحد علماء الأحياء رداً على الماديين الذين قالوا بأزلية الكون . فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لايمكن أن يكون أزليا فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ولايمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيمياوية أو طبيعية ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون ولما كانت الحياة لاتزال قائمة ولا تزال العمليات الكيمياوية والطبيعية تسير فى طريقها فإنا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لايمكن أن يكون أزليا وإلا لاستهلكت منذ زمن وبعيد توقف كل نشاط فى الوجود وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية وهى بذلك تثبت وجود الله لأن ماله بداية لايمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولابد له من مبدىء أو من محرك أول أو من خالق وهو الإله (١) .

وقد صرح القرآن بأن للكون بداية وأن ذلك من صنع الله . قال تعالى : « أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده » (٢) .

كما صرح بأن الكون سائر إلى نهاية وهى يوم القيامة وفيه تنعدم الطاقة قال تعالى : « إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت (٣) .

(١) روح الدين الإسلامى ، عفيفى عبد الفتاح طبارة ص ٨٨ ، ٨٩.
(٢) العنكبوت آية ١٩
(٣) سورة التكوير آية ٢

ومن العجيب فى هؤلاء الماديين أنهم حكموا بالخطأ على غير المادة مع أنهم ماديون والأولى بهم أن لايتعرضوا لغير المادة بالخطأ أوالصواب لأنها ليست من اختصاصهم إن المذهب المادى يحمل ماينقضه إذ أنه بنى على الفروض مثل اعتمادهم نظرية الأثير وهى نظرية لا واقعية ولا ملموسة وكذلك بقاء . المادة وزيادة ونقص الإلكترونات والجاذبية العامة والخاصة كل هذه فروض لاتخضع لتجربة وغير مؤكدة (١) .

(٤) عبد العزيز حسين ، بين الإلحاد والتوحيد ، ص ٣٨

وجود الشر

ومما احتج به الملحدون فى إنكارهم وجود الشر فى العالم فقالوا كيف تكون الدنيا من صنع خالق كامل حكيم وهى فى حالة من الشر والظلم والنقص وسفك الدماء ؟؟ إذ لو كان الخالق موجوداً فعلا لمنع كل هذه الأشياء ولابد لها خيراً وسعادة .

ومن الممكن تفنيد هذه الشبهة فى ما يلى :

١ — لايمكن الحكم على رواية بحضور فصل واحد منها والدنيا فى اعتقادنا ليست هى النهاية بل هى مرحلة من مراحل كثيرة يمر بها الإنسان أما المرحلة النهائية فهى الآخرة حيث لاظلم كما قال تعالى : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم »[١] .

٢ — كثير من المجرمين والظلمة يلقون عقابهم فى هذه الدنيا ويشاهد الناس ذلك أمامهم كما قال تعالى : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ... »[٢] .

٣ — أحياناً نلاحظ أن الابن يبكى عندما يؤخذ أبوه لعملية جراحية ويظن أن هذا شر وقع على أبيه فإذا امتد به العمر ونجحت الجراحة علم أن هذا الشر العارض كان وراءه خير كثير يستحق التحمل والمشقة من أجله وكذلك هذه الدنيا .

كما قال الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن بك حازما فليقس أحياناً على من يرحم

(١) سورة غافر آية ١٧
(٢) سورة طه آية ١٢٤

٤ — بناء وتكوين شخصية الإنسان مرتبط بالمشقات فلولا المشقة لما كان لكثير من الناس معنى من صلابة وحزم وعزم كما قال المتنبى :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

٥ — مايبدو لنا — فى النظرية الجزئية — عيبا ونقصا نراه فى النظرة الشاملة وفى المنظور التاريخى نعمة وخيراً كما لو اقتربنا من جزئية صغيرة فى لوحة فنلاحظ أنها لطعة قذرة فإذا ابتعدنا رأينا تلك اللطعة مساحة من الظلال تؤدى وظيفة ضرورية فى الجمال الكلى[١] .

٦ — الحرية ملازمة للإنسان ويقترن بالحرية الخطأ فهو ضريبتها ، ومن نتائج الخطأ الشر ولو ولد الإنسان مجبراً على الخير لفقد حريته .

٧ — الخير والشر وجهان لعملة واحدة فالفيضان هو خير من وجه وشر من وجه آخر .

والحروب دمار من جهة وحياة من جهة أخرى وهكذا والبحوث المركزة فى أوقات الحرب أخرجت للناس البنسلين ونقل الدم ونقل الأعضاء والطاقة الذرية والصواريخ والنفاثات والغواصات وصناعة الصلب والبارود وأجهزة الرادار .

٨ — الإنسان محدودة طاقته فإذا قصر فى الخير وجد الشر .

٩ — إن الله عزوجل : « لايسأل عما يفعل وهم يسألون »[٢] ،

(١) مرجع سابق رقم ١٨ ص ٢١١
(٢) سورة الأنبياء آية ٢٣

فمن صفات الإله الكامل الاختيار « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون »(١) .

وقد أراد الله الحكيم أن يكون فى دار الدنيا خير وشر فوجود الشر ليس دليلا على عدم وجود الخالق تعالى بل أن وجود الشر (بالنظرة البعيدة) دليل على الخالق الفاطر سبحانه وتعالى إذ أننا نحن البشر نعجز فى كثير من الأحيان عن تقدير عقوبة ظالم من الظالمين لكثرة الشرور التى فعلها حتى ولو قدرنا له عقوبة الموت فإنه لاشىء بالنظر إلى مئات أو آلاف الأرواح التى أزهقها وغير ذلك من الفساد .

فشر هذا الظالم وعدم مقدرتنا على تقدير عقوبة له دليل على أن هناك ذاتا أقوى وأحكم منا قادرة على تلقين هذا الظالم عقوبة تتناسب مع جرائمه فلا تنقص ولا تزيد بينما لو وكل الأمر للبشر فإنه لابد مائل إلى جهة من الجهتين .

وعليه فلا مجال لادعاء عدم وجود الخالق بسبب وجود الشر بل الشر والخير من دلائل وجود الله .

شبهة الأرزاء :

وفى هذا يتفنن الملحدون فى اختلاق المزاعم وزخرفة الأوهام كأنهم يستعذبون الخرافة والتهريج .

فمن مزاعمهم : أن الشرور التى تنتاب الناس والرزايا التى تلم بهم كعروض الأمراض وحدوث الصواعق والزلازل وطوارىء الحرق والغرق وخلق المؤذيات من السباع والحشرات كل ذلك مع

(١) سورة القصص آية ٦٨ .

تسبب العالم وخلوه من سمات القصد والتدبير مما زجهم فى مهاوى الكفر والإلحاد .

وسأوضح بطلان هذه الشبهة وفسادها بما أعرضه على النحو التالى :

الأمراض :

إن الأمراض ليست كما يزعمون ناشئة عن قصور فى العناية الإلهية أو نقص فى تدبيرها الحكيم ، وإنما هى ناشئة فى الأعم فى الأغلب بسبب مخالفة القوانين الإلهية والآداب الشرعية المسنونة لصيانة الإنسان ووقايته من شرور الأمراض والأسقام ، فالإفراط فى الأكل والإسراف الجنسى وتعاطى المخدرات والمنبهات ومواصلة الإجهاد الجسمى والفكرى ، كل ذلك من دواعى اعتلال الإنسان وانحراف صحته .

هذا إلى أن الإنسان بحكم واقعة وطبيعة تكوينه عرضه لمختلف الطوارىء التى لاتنفك عنها جميع الممكنات تلازمه ملازمة الظل لصاحبه كالمرض والهرم والضعف والموت . ففى ذلك عنه جهل بحقيقته وإعفاء له من ألصق خصائصه البشرية .

بيد أن الله عز وجل لم يدع الإنسان فريسة للأمراض وهدفا لها ، فقد علمه طرائق الوقاية والعلاج منها ، وجعل لكل داء دواء يستطب به وما برح الأطباء عبر العصور يلتمسون الأدوية الناجعة والعقاقير الشافية لكثير من الأمراض .

وبالرغم من فداحة الأمراض وآلامها المبرحة فإنها لاتخلو من حكم

(١) سورة العنكبوت آيات ٢ ، ٣ .

ومصالح فهى محك واختبار للإنسان يستجلى مبلغ إيمانه وواقع أخلاقه وتمسكه بالصبر أو الجزع : بالتفويض إلى الله تعالى أو السخط على قضائه وتدبيره ، وعلى ضوء نتائج الاختبار ينال الممتحن ما يستحقه من الأجر والمكافأة .

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »(١) .

والأمراض بعد هذا وذاك وسيلة تأديبية تزجر الغواة والعابثين الذين أبطرتهم العافية وغرتهم الصحة فاندفعوا فى تيار الأهواء والآثام دونما اكتراث ومبالاة بنتائجها السيئة ، ومغبتها الوخيمة فتقرعهم آنذاك الأمراض بسوطها الموجع لتؤذيهم وتقوم انحرافهم وتعيدهم إلى الرشد والصواب .

قال ﷺ : « لولا ثلاثة فى ابن آدم ماطأطأ رأسه شىء ، المرض والموت والفقر وكلهن فيه وإنه معهن لوثاب ، وهى كذلك كفارة للمؤمن وطهارة له من تبعات الذنوب ودنس الآثام ليلقى الله عز وجل نقياً آمناً من سخطه وعقابه كما ورد فى بعض الآثار من ذلك : المرض للمؤمن تطهير ورحمة وللكافر تعذيب ولعنة وإن المرض لايزال بالمؤمن حتى لا يكون عليه ذنب .

وللمريض أربع خصال : يرفع عنه القلم ويأمر الله الملك يكتب له كل فضل كان يعمل فى صحته ويتبع مرضه كل عضو فى جسده فيستخرج ذنوبه منه فإن مات مات مغفوراً له وإن عاش عاش مغفوراً له .

(١) الدلائل والاعتبار ، أبو عثمان عمرو بن بحر الحافظ ص ٥ .

وأما الآفات التى تنتاب الناس وتلم بهم أحياناً كالصواعق والزلازل وطوارق الحرق والغرق وانتشار الجراد ونحوها من المكاره والأرزاء التى أتخذها الملحدون ذريعة إلى إنكار الخالق ونفى الحكمة والتدبير فى خلقه ، وتلك شبهة مخرقة تكشف عن بلادة أربابها وغبائهم الفاضح ، كيف يكون العالم غفلا مهملا من العناية والتدبير ؟؟

ونحن نشاهد آيات الحكمة ودلائل القصد والتدبير تطالعنا فيه هنا وهناك أقطار الأرض وآفاق السماء وفى جميع الموجودات صغيرها وكبيرها جليلها وحقيرها وعلام لم يحدث فى الكون ماهو أفظع من ذلك؟ كأن تسقط السماء على الأرض ، وتهوى الأرض فتذهب سفلا وتتخلف الشمس عن الطلوع وتجف الأنهار والعيون وتركد الريح حتى تفسد الأشياء ويفيض ماء البحر على الأرض فيغرقها .

وما بال هذه الآيات لاتدوم وتمتد حتى تجتاح العالم بل تحدث فى الأحايين ثم لا تلبث أن ترتفع ، أفلا ترى أن العالم يصان ويحفظ من تلك الأحداث الجليلة التى لو حدث شىء منها كان فيه بوار .

ويلدغ بهذه الآفات اليسيرة لتأديب الناس وتقويمهم ثم لاتدوم بل تكشف عنهم فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة ولو كان عيش الإنسان فى هذه الدنيا صافياً من كل كدر لخرج الإنسان من الأشر والعتو إلى مالا يصلح فى دين ولادنيا كالذى نرى كثيراً من المترفين ومن نشأ فى الجدة والأمن يخرجون إليه حتى أن ينسى أحدهم أنه بشر وأن ضروراً يمسه أو مكروها ينزل به وأنه يجب أن يرحم ضعيفاً أو يواسى فقيراً أو يرثى لمبتلى أو يعطف على مكروب فإذا عضته المكاره ووجد مضضها اتعظ وأبصر كثيراً مما كان جهله وغفل عنه ورجع إلى كثير مما كان يجب عليه ، والمفكرون لهذه الأمور بمنزلة الصبيان الذين يزمون الأدوية المرة البشعة ويسخطون من المنع من الأطعمة الضارة ويتكرهون الأدب

والعمل ويحبون اللهو والبطالة ويغالون فى كل مطعم ومشرب ولا يعرفون ما تؤدى بهم إليه البطالة من سوء النشوء والعادة وما تعقبهم الأطعمة اللذيذة من الأدواء والأسقام وما لهم فى الأدب من الصلاح وفى الأدوية من المنفعة وإن شاب ذلك بعض الكراهة .

فإن قالوا : ولم لم يكن الإنسان معصوماً من المساوىء لا يحتاج إلى أن تلدغه هذه المكاره ؟ .

قيل : إذن كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها ولا مستحق للثواب عليها ، وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التى تصيب الناس فتعم البر والفاجر منها ، كيف يجوز هذا فى تدبير الحكيم وما الحجة فيه ؟ .

فيقال لهم : إن هذه الآفات وإن كانت تنال الطالع والصالح معاً فإن الله عزوجل جعل ذلك صلاحا للصنفين كليهما .

أما الصالحون : فإن الذى يصيبهم من هذا يزيدهم إدراكاً لنعم ربهم فى سالف أيامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر .

وأما الطالحون : فإن مثل هـــذا إذا نالهم كسر شرهم وردعهم عن المعاصى والفواحش .

وكذلك يجعل لمن سلم من الصنفين صلاحاً فى ذلك :

أما الأبرار : فإنهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح ويزدادون فيه رغبة وبصيرة .

وأما الفجار : فإنهم يعرفون ما بهم من رأفة ربهم وتطوله عليهم بالسلامه من غير استحقاق فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس والصفح عمن أساء إليهم[1] .

(١) الدلائل والاعتبار ، أبو عثمان عمرو بن حجر الحافظ ص ٥

الشرور والمظالم :

ويعترض الجاحدون فى تشدق فاضح على الشرور والمظالم التى يقترفها الناس من إثارة الحروب وسفك الدماء وهضم الحقوق والكرامات ، ونحوها من صور المظالم التى استدلوا بها على تسيب العالم وإغفاله من ضوابط العناية والتدبير .

وهذا اعتراض ساقط إذ ليس العالم مهملا كما يزعمون وليست تلك الظلامات ناشئة من إهماله وإغفاله وإنما هى من شذوذ الإنسان وعتوه وطغيانه .

فقد أرسل الله الأنبياء والمرسلين إلى الناس مبشرين ومنذرين فلم يتركوا فضيلة إلا حضوا عليها ولا رذيلة إلا حذروا منها وجهدوا ما استطاعوا فى تهذيب الإنسان ورقيه وإسعاده .

وإنما شقت البشرية وعانت تلك الشرور والأرزاء بطغيانها وتمردها على الأنبياء عليهم السلام ودساتير السماء الكافلة الموجهة ، ولو أنها استنارت بهداهم وسارت على لهجتهم لسعدت وعاشت فى طمأنينة وسلام متفادية تلك المظالم : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »[1] .

وليس من الحكمة أن يجبر المولى عباده على طاعته ومجانبة عصيانه فإنهم لو فسروا على ذلك لانعدمت فيهم مقاييس الفضل والكمال وتلاشت الفوارق والميزات بين الطيب والخبيث ، والمحسن والمسىء ، ولم يستحق المحسن ثواباً ولا المسىء عقاباً ، وذلك مناف لصميم حكمة الله عز وجل .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٩٦ .

وهكذا لو أجبر الناس على الطاعة والصلاح لانحطوا عن سمو الإنسانية إلى حضيض البهائم والدواب التى تساس بالعصا والإرهاب وذلك مزر بكرامة البشر وليس الاعتراض على نقص الإنسان وعدم خلقه كاملا مبرءاً من الشذوذ والإجرام إلا كالقول بضرورة قسره على الطاعة وكلاهما باطلا كما عرفت .

أضف إلى ذلك : أن انتفاء التمايز والتفاضل بين الناس وجعلهم صورة واحدة لاتختلف ولا تتفاوت فى المواهب والكفاءات باعث على فساد المجتمع وتسيب نظامه القائم على التمايز والتفاوت .

الموت :

وقد اتخذه الجاحدون وسيلة للدس والتهريج على إغفال العالم وخلوه من التدبير لشيوع الموت فيه وأنه كان الأجدر على زعمهم أن يظل الإنسان خالداً فى الحياة لايفنى ولا يموت إذ اعتبروا الموت شراً مستطيراً وبلاء مبرما .

وليس الموت شراً كما يزعمون وإنما هو انتقال للمؤمنين من سجن الحياة وأسرها وآلامها إلى جنات الآخرة ونعيمها الخالد وصيرورة للكافرين إلى عذاب الله وعقابه الذى يستحقونه جزاء وفاقاً ، وليس الإعتراض على موت الإنسان وارتحاله إلى عالم الخلد إلا كالإعتراض على الجنين بخروجه من ضيق الرحم وظلمته إلى فضاء الدنيا ونورها الوهاج إذ ليست الدنيا فى قياسها بالآخرة إلا كقياس الرحم من سعة الدنيا وجمالها الفاتن .

على أن البشر لو كانوا خالدين فى الحياة لضاقت عليهم الأرض برحبها وأعوزتهم المعائش والمساكن ، ودفعهم ذلك إلى أبشع صور

التكالب والتطاحن على زخارف الحياة فإنهم والموت يتخطفهم ويخترمهم لايتفكون عن ذلك ، فكيف بهم لو آمنوا الموت وكانوا مخلدين . . ؟ وصيرورة للكافرين إلى عذاب الله وعقابه الذى يستحقونه جزاء وفاقا .

ثم كانوا يملون الحياة ولذائذها كما قد يملها من طال عمره حتى يتمنى الموت والراحة منها .

فإن قيل : لم لم ترفع عنهم المكاره لكى لايتمنوا الموت ولا يشتاقوا إليه ؟[1] .

فقد وصفنا ما كان يخرجهم إليه من العتو والأشر الحامل لهم على مافيه فساد الدين والدنيا .

خلق الشواذ :

ومن مطاعن الماديين على انتفاء القصد والتدبير فى العالم خلق الشواذ والمشبوهين فيه الخارجين عن مألوف الخلق البشرى .

وهو إدعاء باطل وزعم مزيف من وجوه :

١ — أن خلق الشواذ لايستلزم إنكار خالقها لمجرد الجهل بأسباب شذوذها فكان الأجدر بهم أن يؤمنوا بموجدها لاستحالة وجودها من غير موجد ثم يتحروا بعد ذلك دوافع شذوذها وأسبابه .

٢ — لقد تجلت حكمة الله تعالى ودلائل قصده وتدبيره فى أغلب مخلوقاته مما أدهش العقول وبهر الألباب ، ومتى ثبتت حكمة الحكيم وصدر منه ماهو مجهول الغاية والقصد فلا يقدح ذلك فى حكمته ليقيننا بصوابها وسدادها .

(١) المرجع رقم ٦٧ ، ص ٦ .

لذلك لايصح ولاينبغى أن يكون خلق الشواذ دليلا على نفى حكمة الله تعالى وباعثاً على جحوده ونكرانه وإنما يدله على قصورنا وجهلنا بأسرارها وألغازها .

٣ — لقد كشف العلم أن ذلك الشذوذ وتلك العاهات المشوهة كثيراً ماتنجم عن مرض الآباء واعتلالهم مما يسبب تشويه نسلهم وشذوذه عن المألوف وحسبك فى ذلك ما تسببه الأمراض الزهرية من صنوف العاهات والزمانات المشوهة للنسل .

٤ — أن من غرائب الماديين أنهم نظروا إلى الشواذ نظراً قاصراً وطفقوا يهرفون بشذوذها وإنكار صانعها ، وفاتهم أن العلم أخذ فى التقدم والإتساع وأن مانجهل حكمته قد نعرفه فى الغد القريب أو البعيد وطالما أكتشف العلم أسراراً غامضة وألغازاً خفية كانت مبهمة على السابقين فكان الأجدر بهم أن يعترفوا بقصورهم عن تفهم أسرار الشواذ ويرجئوا ذلك إلى حين اتساع العلم وكشفه النقاب عنها كما هو ديدن العلماء المتواضعين الذين اعترفوا بهذه الحقيقة وصرحوا بأن مكاسبهم العلمية تعتبر جزءاً ضئيلا إزاء مايجهلونه من أسرار الحياة وألغازها الخفية .

وإليك نموذجاً من شهاداتهم المعربة عن تواضعهم العلمى : قال الأستاذ (ولياء جيمس) فى كتابه إرادة الإعتقاد : « إن علمنا ليس إلا نقطة ولكن جهلنا بحر زاخر والأمر الوحيد الذى يمكن أن يقال بشىء من التأكيد هو : أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع أخر لم ندرك خواصه المكونة له إلى اليوم »[1] .

(١) محمد فريد وجدى ، على أطلاب المذهب المادى ج ١ ، ص ١٣٥ .

وقال الدكتور (بول كيرانس أبرسولد) . « لقد كنت عند بدء دراستى للعلوم شديد الإعجاب بالتفكير الإنسانى وبقوة الأساليب العلمية إلى درجة جعلتنى أثق كل الثقة بقدرة العلوم على حل أى مشكلة فى هذا الكون وإدراك معنى كل شىء وعندما تزايد علمى ومعرفتى بالأشياء من الذرة إلى الأجرام السماوية ومن الميكروب الدقيق إلى الإنسان تبين لى أن هنالك كثيراً من الأشياء لم تستطع العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً وتكشف عن أسرارها النقاب »[1] إلى كثير من أمثال هذه الشهادات .

خلق المؤذيات :

وكذلك اعترض المكابرون على خلق المؤذيات كالسباع الضارية والحشرات الموذية والهوام القاتلة التى من شأنها الإضرار بالإنسان وإيذائه منكرين الغاية والقصد من خلقها وإيجادها .

والحق أن الجهل بعلل الأشياء وغاياتها لايبطل حكمة خلقها وإيجادها فقد تكون غاية فى الصواب ونحن لاندرك وجه صوابها .

وطالما كشف العلماء أسراراً علمية كانت مبهمة على الأجيال السالفة . فمن الغباء أن يعترض الملحدون على خلق المؤذيات لجهلهم بغاياتها وفلسفتها .

على أن تلك المؤذيات لاتخلو من خواص ومنافع أدرك البشر بعضها وأفادوا منها وأرجىء الآخر إلى رقى العلم واتساع آفاقه .

(١) مرجع سابق رقم ٣٥ ، ص ٣٨ .

هذا ولا يعتبر فى تلك المؤذيات أن تكون مخلوقة لخير الإنسان ومنافعه فحسب وإنما هى أمة بنفسها ومظهر رائع من مظاهر قدرة الله تعالى وإبداعة المدهش .

بيد أن الله عزوجل وقى الإنسان شرها وأذاها بما منحه من المواهب والوسائل الموجبة لصيانته وحفظه [١] .

ومما احتج به الملحدون فى إنكار الغيب أن العلم يرفض الغيب فالعلم مطلوب ولا يقول عاقل بتركه وحيث لامجال بين الأخذ بالعلم والإيمان بالغيب وجب طرح الغيب وعدم الإيمان به ولأهمية هذه الشبهة سوف نقوم بمعالجتها فى فصل مستقل بعد بإذن الله .

(١) مرجع سابق رقم ١٣ ص ٤١ ، دار الطباعة المحمدية مصر .

الإيمان بالغيب خيال لا واقع

واحتج الملحدون أيضاً بأن الإيمان بالغيب عملية خالية ترفضها الواقعية . ويقولون : إن علينا أن نفكر فى واقعنا ونترك ماهو بعيد إلى حينه وأن الحديث عن حياة أخرى غير الحياة الدنيا حديث لهو لا غناء فيه ولانفع ، والنفع والخير فى استغلال الموجود من علم وصناعة وفن وزراعة وطب .. الخ . ويقولون إن الناس بحاجة إلى من يطرق لهم أبواب الحياة فى هذه الآفاق لا إلى من يثير فى وجوههم غبار القبور ويسوق إليهم ريح الموتى ويحمل لهم الأكفان قبل أن يموتوا [١] .

ونستطيع تفنيد هذه الشبهة على النحو التالى :

نقول : إنكم خلطتم الحق بالباطل وكلامكم ملىء بالمغالطات : فمن قال لكم إن الحديث عن الآخرة يكون على حساب مصلحة الناس فى معاشهم ومن قال إن هناك — أصلا — فصلا بين الدنيا والآخرة ؟ ومن قال منعكم من استغلال العلوم والصناعات والتبحر فيها وجنى ثمرها ؟ من قال لكم إن الحديث عن الآخرة يجعل الناس يموتون وهم أحياء ؟ ! إن هذه كلها تصورات خاطئة عندكم لجهلكم بطبيعة الإيمان الذى طلبه الله من خلقه . إن المسلم يفكر فى آخرته دون أن ينسى واقعه ودنياه : « ولا تنس نصيبك من الدنيا »[٢] .

إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها . إن الإسلام يفرض

(١) عبد الكريم الخطيب ، الله والإنسان ص ١ ، ٣ ط مصر .
(٢) سورة القصص آية ٧٧ .

على أتباعه أن يكون فيهم من يغنيهم عن غيرهم فى كافة المجالات وهو ما يسمى عند العلماء بفرض الكفاية فيجب أن يكون المسلمين أطباء ومهندسون وفلكيون ومتخصصون فى كافة المجالات .

ثم إن التفكير فى الموت والقبر لا يثنى المسلم عن العمل للدنيا ، بل يجعله يهتم بآخرته أكثر وهذا هو منطق العقلاء إذ العاقل يفضل الباقى على الفانى . إن الزهد الذى يحض عليه الدين ليس معناه ترك الدنيا وخيراتها قال تعالى : « قل من حـــرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق »[1] .

هذه ردود عليهم إن كانوا يجهلون طبيعة الإسلام خاصة والإيمان عامة ، أما إن كان إنكارهم ينطلق من خلفية مسبقة وهذا هو الأغلب ، وحقد دفين وإصرار على العصيان فهذا له كلام آخر حيث لا تنفع معه حجة ولا يستقيم لديه دليل كما قال الشاعر :

وليس يصح فى الأفهام شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

الفكر نتاج المجتمع

ومما احتج به الملحدون فى انكارهم للغيبيات قولهم إن الأفكار الدينية كغيرها من الأفكار من حيث إنها نتاج المجتمع ، تقول الكواسة الرمادية التى نشرها الفوضويون الماديون فى العراق (إن الإسلام ككل دين آخر هو ظاهرة تاريخية معرضة إلى تغييرات وتبديلات بحسب الظروف ويمكن القول إنه ينشأ نتيجة لعوامل تاريخية محضة)[2] .

(١) مرجع سابق رقم ٣٥ ، ٣٨ .
(٢) محمد عبد المنعم خفاجى ، الرد على الملحدين ص ١٥

فالدين عندهم ولد فى مجتمع معين وبما أن هذا المجتمع قد مضى وانتهى فكذلك الدين لأنه ثمرة لذلك المجتمع الفانى يقول مار كس : « ليس شعور الناس هو الذى يحدد واقعهم بل الواقع هو الذى يحدد الشعور » . ويقصد بهذا أن الأفكار — أية أفكار — هى من المجتمع تنبع لا من جهة أخرى ويقصد السماء والوحى فلا وحى ولا خالق بل هى أفكار أنتجها المجتمع وعبر عنها الناس[1] .

ومرادهم من هذا الكلام الوصول إلى مسألتين :

١ — نفى أن يكون الدين سماوياً مرتبطاً بالوحى السماوى .

٢ — الدين من صنع المجتمع وثمرة من ثمار مجتمعات متتالية فإذا تغير المجتمع تغيرت الأفكار .

وهذا كلام خطير عملت الماركسية على نشره بهدف تقرير أننا لسنا فى حاجة إلى الدين لأنه ثمار مجتمعات قديمة أكل عليها الزمان وشرب .

ومن الممكن تفنيد هذه الشبهة فيما يلى :

١ — إذا كانت الأفكار الدينية من نتاج المجتمع فكيف نفسر استمرار هذه الأفكار فى جميع المجتمعات قديماً وحديثاً .

٢ — عدم مقدرة المفكرين على إدخال أفكار جديدة تستطيع العيش عبر العصور .

٣ — المعجزات التى اقترنت بالدين تنفى كونه من إخراج المجتمع إذ المجتمع والناس كل الناس عاجزون ومقرون بعدم مقدرتهم على الإتيان بمعجزات مثلها .

(١) مرجع سابق رقم ١٨ ، ص ٢١٤

٤ — المعارضة القوية ومن أكثرية أفراد المجتمع للدين عند ظهوره تنفى أن يكون هذا الدين إفرازاً من المجتمع إذ لو كان كذلك لما عارضه أحد لأنه استمرار وثمرة لما أرادوا .

٥ — عدم التناسب بين فترة ما قبل ظهور الدين والأفكار التى نادى بها عند ظهوره ، فالإسلام مثلا ظهر فى بلاد العرب ونادى بأشياء كثيرة أبعد ما تكون عن واقع العرب ومتطلباتهم فنادى بالتوحيد والجزيرة مليئة بالأصنام ونادى بنظام الدولة وبلاد العرب تعيش فى ظل النظام القبلى ونادى بمكانة المرأة وهى عندهم محتقرة ذليلة وحرم أشياء كالزنا ، الخمر ، وهم غارقون إلى آذانهم فيها فكيف يكون الإسلام من نتاج المجتمع العربى ومع هذه الدلائل الواضحة إلا أن الملحدين فى البلاد الإسلامية لا يزالون ينادون بهذه الفكرة[1] .

الأخلاق :

ونجد امتداداً لهذه الانحرافات التى سبقت الإشارة إليها أن هناك من يزعم بأن الدين يمكن الاستغناء عنه بالضمير ويذهبون إلى أن الفرد لو حسنت أخلاقه وكان حسن المعاملة لمن حوله فلا حرج عليه فيما يفعله والواقع المشاهد يدلنا على أن كثيرين يتصفون بالأخلاق الطبيعية وهم غير متدينين يستشهدون لذلك بأن الدين المعاملة[2] .

وهذا احتجاج باطل ودعوى ساقطة .

صحيح أن الدين المعاملة وأن حسن الخلق بعض ما يقصد من العبادة ولكن فات هؤلاء أن الأخلاق فى الإسلام مؤسسة على العقيدة والإيمان

(١) نفس المرجع ، ص ٢١٤

(٢) المدخل إلى الثقافة الإسلامية ص ٣١ لجنة من قسم الثقافة .

بالله ومرتبطة بالعبادة فلا يجوز فى نظر الإسلام التركيز على الجانب الأخلاقى وإهمال جانبى العقيدة والعبادة إذ أن الأخلاق الإسلامية تتميز بأنها مبنية على الرقابة الإلهية والضمير المتصل بالله إضافة إلى رقابة القانون والمجتمع بينما الأخلاق فى المجتمعات الأخرى مؤسسة على رقابة القانون أو الضمير الجمعى — ومن ثم فإنه لو تخلف القانون أو غاب المجتمع لتسببت الأخلاق وانفرط عقد النظام الاجتماعى ، فى حين أن المسلم مسؤول أمام الله الذى لا يغفل ولا يغيب[1] .

والذى لا يعتقد العقيدة الصحيحة يكون قد أساء الخلق حتى ولو كان من أفضل الناس أخلاقاً مع الناس لأنه أساء خلقه مع ربه عز وجل ، والإسلام يريد من المسلم أن يكون خلقاً صافياً نقياً ترتبط أخلاقه بالعقيدة الصحيحة فلا تكون أخلاقاً هشة تتغير بتغير الظروف والأزمان كما هو الحال مع المنافقين الذين عناهم الشاعر بقوله :

لا خير فى ود امرىء متلون
إذا الريح مالت مال حيث تميل
وما أكثر الأعوان حين تعدهم
لكنهم فى النائبات قليل

هذا النوع لا يحترمه الإسلام ، والقلة التى يحتج بها وأنها على أخلاق حميدة دون دين هذه القلة ليست هى المقياس للمجموع العام .

والدين جاء ليخاطب كل الناس ضعيفهم وقويهم وغنيهم وفقيرهم الرجل والمرأة ، والأبيض والأسود ... إلخ . وكى ينضبط هذا المجموع فى سلك الأخلاق المؤسسة على العقيدة كان لا بد من الدين .

ولا بد من مقياس للأخلاق الحسنة من القبيحة يقول

(١) المرجع السابق ص ٣٢

د/ يوسف القرضاوى : «روى الترمذى «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» فالدين وحده هو الذى يحدد السلوك المستقيم من غيره فلا القانون ولا الفلسفة الأخلاقية تحد ذلك فالقانون يحكم على الظاهر ويعاقب المسىء ولا يجزى المحسن والفلسفات الأخلاقية كثيرة وما الذى يعود إلى نتيجة تمسكى بفلسفة الواجب التى نادى بها كانت أو فلسفة اللذة التى قال بها أريستيب وأبيقور أو فلسفة المنفعة وهى فلسفة وليم جيمس، أم ماذا ؟؟

قال فيخته الفيلسوف الألمانى : «الأخلاق من غير دين عبث» وقال غاندى «إن الدين ومكارم الأخلاق هما شىء واحد لا يقبلان الانفصال»(١) .

ثم إن الملحد صاحب الخلق لا يلبث أن تنجلى حقيقته ومادیته لو تعمقت معه فى الصلة والعلاقة فهو طيب الأخلاق ما لم تتعرض مصالحه للخطر فإن خاف عليها وشعر أنها فى خطر فإنه ينسى الأخلاق والسلوك ويكون جل همه مصلحته ولو على حساب الآخرين .

إن لدينا الكثير من الأمثلة على خلق ذوى الدين بينما لم يشتهر بين الناس ملحد صاحب خلق ؟

ثم إن هؤلاء الذين تمسكوا بهذه النقطة يغلب على ظنى أنهم فهموا الأخلاق بحدود أصغر مما يفهمها المؤمنون أو مما هى عليه حقيقة فكأنهم ظنوا الأخلاق هى الصدق والأمانة فحسب والحقيقة أن الأخلاق تظهر فى كل تصرف يقوم به الإنسان مع ربه أولا ومع نفسه وسائر الخلق ثانياً فإذا قصر فى ناحية منها اعتبر مقصراً فى أخلاقه إن ما يشتهر عن الغربيين والبريطانيين بالذات من أنهم أهل الصدق إنما اشتهر هذا لأنه كان من هدف سياسة بريطانيا فى المنطقة العربية الإسلامية ليسهل تثبيت أقدامها

(١) د/ يوسف القرضاوى ، الإيمان والحياة ، ص ١٨٩

هنا بينما نملك أمثلة كثيرة على سوء خلقهم من عهر وزنا ولواط وتفكك أسرة ومادية واضحة ومكر بالشعوب(١) .

وبالمقابل نملك آلافا من الأمثلة على خلق المسلمين وتكامله من جميع الجوانب ، أما مسألة الضمير فسأكتفى فى الرد عليها بمحاولة أمريكا تحريم الخمر وفشلها فى ذلك بينما استطاع الإسلام ذلك بسهولة فعن أبى برية عن أبيه قال بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم وقد نزل تحريم الخمر «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، إلى قوله : فهل أنتم منتهون»(١) .

فجئت إلى أصحابى فقرأتها عليهم إلى قوله «فهل أنتم منتهون» قال: وبعض القوم شربته فى يده شرب بعضاً وبقى بعض فى الإناء تحت شفتيه العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا فى باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا انتهينا(٢) .

والسبب فى هذه الاستجابة العجيبة العقيدة والإيمان بالله عز وجل وأنه يراهم أينما كانوا وسيحاسبهم على أعمالهم فالأخلاق إذا بنيت على العقيدة كانت من أبدع ما يكون أما إذا كانت بدون عقيدة فإنها تكون معرضة للتغير والتبدل كما هو واقع عند الغرب فهو على استعداد أن يحترم قانون الإشارة الضوئية المرورية لكنه لن يستجيب لقانون يمنع الخمر أو الزنا أو غيره مما يسىء إلى الأخلاق فما تذرعوا به من أن الضمير والأخلاق لا تحتاج إلى دين أمر مرفوض عقلا وشرعاً وواقعاً .

(١) سورة المائدة ، آية ٩٠

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره بسنده الآية ٩٠

قيام الساعة

ويستخدم الملحدون أسلوب الاستهزاء بالإيمان فيثيرون غباراً حول الساعة والجزاء والجنة والنار ، ومما قالوه : إن القرآن يقول « لعل الساعة تكون قريباً » ، وقد مضى أكثر من أربعة عشر قرناً ولم تقم الساعة بعد ونسى هؤلاء أو تناسوا أن القرب والبعد مسألة نسبية وأن الألف عام أو أكثر ليست إلا زمنا يسيراً وعهداً قريباً بالنسبة لعمر الدنيا وبخاصة إذا عرفنا ما يقوله علماء الجيولوجيا الذين يقدرون عمر الأرض بالملايين من السنين والقرون ونضيف إلى هذا أن محمداً ﷺ خاتم النبيين وأن رسالته هى الكلمة الأخيرة من الله للناس وبذلك يكون معنى القرب واضحاً فلا نبي بعده ولا رسالة بعده حتى تقوم الساعة[1] .

التقدم نقيض الدين :

يرى الماديون أن التطور الحضارى الذى بلغه الإنسان ينفى الدين إذ الحقيقة فى نظرهم هى ما يمكن فحصه وإجراء التجارب عليه عمليا بينما حقائق الدين تنفى ذلك فهى تقوم على مالا يمكن فحصه ومشاهدته[2] .

وفى ذلك يقول ملحد القصيم « وقد أبدع الإغريق والرومان والمصريون القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة لانهم عبدوا الطبقة . . وهوت جميع الامم التى انصرفت إلى ما لا تحس ولا ترى .

وإلى نفس المعنى يشير جوستاف لوبون فى كتابه الآراء والمعتقدات فيقول : « إن الإيمان بالله وحده كان نكبة على البشر لانه وقف

(١) أحمد العسال ، الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين ص ٢٩ ، طبعة ١٣٩٥ هـ .

(٢) محمد أحمد حسن ، العقيدة الإسلامية فى القرآن والسنة ص ٣ ، ١٣٨٥ هـ

بالحضارة عن التقدم ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة إلا فى عهود الوثنية وعبادة الأصنام[1] .

ويقول الماديون إنهم قد تعاملوا مع الواقع المحسوس وضربوا صفحاً عن التصورات والخيالات ، فحصلوا على كل الثمار المادية من مال وثراء وترف وقصور وسيارات وطائرات وغواصات ورحلات فضاء وقوة سيادة وسيطرة أما الأمم التى تؤمن بالروحانيات فهى فقيرة مستضعفة : مرض ، حرمان . جوع ، فقدان للتكنولوجيا ، هزائم ، لاعلماء ولا رجال فضاء[2] .

المناقشة :

نستطيع فى البداية أن نقرر أنه هؤلاء الماديين قد أخطأوا فى اعتمادهم على الحس وعلى التجربة فإذا كان الحس أو التجربة وسيلة صحيحة من وسائل المعرفة فليست هى الوسيلة الوحيدة فهناك وسائل أخرى كالعقل والقلب أو البصيرة أو الحدس لأن الوجود له ظاهر وباطن فالحس أو التجربة وكذلك العقل وسيلتنا إلى معرفة الوجود الظاهر وأما البصيرة أو الحواس فوسيلتنا إلى معرفة الوجود الباطن أو عالم الغيب وإذن فمن التحكم أن يعتمد الملحدون على وسيلة واحدة ثم يجعلونها المقياس لكل الحقائق ، ثم أن المنطق السليم يقتضى أن يختلف الخالق وهو الله عن المخلوق (أفمن يخلق كمن لايخلق)[3] .

(١) عبد الله بن على باعيسى ، الرد القويم على ملحد القصيم ص ٤٣٠ .

(٢) عبد الكريم الخطيب ، الله والإنسان ص ١٠٦ ، دار الفكر العربى ، ١٣٩١ هـ .

(٣) سورة النحل آية ١٧ .

وقد أكد العلم الحديث هذا الاختلاف وقرر أن الكون يسير إلى حالة من الخمود وانعدام الطاقة فلابد إذن من سبب أول لايخضع[1] لما تخضع له المادة ولابد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته .

ومعنى هذا أن الخالق لايمكن أن يكون مادياً وإلا لخضع لما تخضع له المادة من الخمود والعجز ولكان من المستحيل أن يوجد الكون أو توجد الحياة .

على أن الماديين الذين لايعترفون بغير المادة قد اضطروا إلى التسليم بأشياء ليست من عالم المادة ولا من معطيات الحس من ذلك مثلا الحرارة والكهرباء فإنهم يدركون آثارها ويتحكمون فى قواها ولكنهم عاجزون أشد العجز عن معرفة السر الكامن فيها والأثير لايستطيعون أن ينكروا وجوده فى حين أنهم لم يروه ولم يقع تحت حسهم بل أنهم لم يتناولوه بتجربة تثبت وجوده .

وكذلك فإن العلم — الذى اعتمدوا على منهجه أصبح يؤمن اليوم بأن فى الوجود قوى لاينالها الحس المجرد ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر وأصبح يؤمن بأن التجربة الحسية ليست هى المعيار الوحيد للحقائق ذلك أن بعض الملاحظات تحمل العلماء على الإيمان بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعياً .

ولذا فإن العلم لم يعد يدعى أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة فقانون الجاذبية وهو قانون علمى صحيح لايمكن ملاحظته قطعاً وما شاهده العلماء من دوران القمر فى الفلك وصعوبة

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ترجمة سرحان الدمرداش ص ٣٥ .

رفع الحجر إلى أعلى وسهولة النزول من الجبل عن الصعود فوقه لايمثل فى ذاته قانون الجاذبية وإنما هى أشياء أخرى اضطروا لأجلها أن يؤمنوا بوجود هذا القانون حتى يستطيعوا أن يفسروا به هذه المشاهدات وهذا القانون مع أنه لم يشاهد — حقيقة علمية — لأنه يفسر بعض الملاحظات فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هى ماعلمناه مباشرة بالتجربة ومن ثم نمضى إلى القول بأن الحقيقة الغيبية التى تربط وتفسر مانلاحظه تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة[1] .

وإذا كان الماديون من العلماء يؤمنون ببعض الحقائق الغيبية التى لايمكن ملاحظتها فلماذا ينكرون الحقيقة الإلهية بدعوى أنها حقيقة غيبية ؟ .

وإذا كان الملحدون يحتجون على إنكارهم للحقيقة الإلهية بأنهم لم يروها فإننا نقول إذا كنتم ترون الروح السارية فى الأجسام فإنكم قد تستطيعوا أن تروا الله ، ولكن الواقع غير هذا فإنكم لاترون الروح ولن تروها مهما بذلتم من جهد وما الذى دعاكم إلى أن تؤمنوا بأن فى الأجسام الحية أرواحاً ؟ .

أليس الذى دعاكم إلى الإيمان بذلك أن فى الأجسام الحية مظاهر لاتبدو فى الأجسام الميتة والجامدة وهذه المظاهر تختفى إذا فارقتها تلك القوة الخفية التى تسمى روحاً ؟ .

إن الكائن الحى يبدو أمامنا متحركاً متنفساً غادياً رائحاً ثم نراه وقد خمد وسكن وبرد جسمه ثم تحلل وفسد دون أن نرى شيئاً مادياً منفصلا عنه وإذن فهناك شىء غير محسوس هو سر الأحياء إذا انفصل عن الكائن الحى مات وانقلب إلى عالم المادة الخامدة .

(١) مرجع سابق رقم ٣٣ ص ٤٣ .

أننا مضطرون إلى الإيمان بوجود شيء غير مرئى ولا محسوس يسكن كيان الكائن الحى لأننا نرى آثار هذا الشيء حين يكون ونفتقدها حين يذهب . أما هذا الشيء نفسه فلا ينكشف لنا شيء منه فى حضوره أو غيبته فلم لانؤمن بالحقيقة الإلهية — وهى حقيقة روحية خالصة لأننا لانرى هذه الحقيقة الروحية ؟!

نحن أيضاً لانرى الروح الكامنة فى كيان الإنسان وغيره من الأحياء ومع ذلك فنحن جميعاً نؤمن بأن فى كل كائن حى روحاً هى سر الحياة فى كل الأحياء[1] .

وما ذكروه من أن الإغريق والرومان والمصريين القدماء وغيرهم من الشعوب قد أبدعوا . . الخ . فهذا نقبله من نواح ونرفضه من نواح أخرى .

نقبله من حيث فن العمارة والصناعات وبعض العلوم اليدوية . أما النواحى الأخلاقية والوثنيات والبطش والاستبداد فهذا أمر لاينكر فى سوء حضارتهم ومع هذا فإن التقدم الذى وصلوا إليه ليس سببه أنهم عبدوا الطبيعة وقدسوها ونلاحظ أن كثيراً من الشعوب الافريقية وبعض شعوب جنوب شرق آسيا لايزال حتى الآن يعيش يعبد الأوثان والطبيعة ولا يعرف عن الإله شيئاً ومع ذلك نراهم فى سلم التقدم الحضارى غير متقدمين ثم إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب . وكذلك يعطى الدنيا ومنها التقدم الحضارى لكل من يبذل فيه جهداً بغض النظر عن اعتقاده .

فإذا قصر المسلمون فى هذا المجال فليس لأن دينهم أمرهم بهذا بل يحضهم عليه وهذا أمر معروف .

(١) د . شوقى إبراهيم ، دراسات فى العقيدة ص ١٢٤ .

وإذا تقدم عباد الطبيعة فليس لأنهم عبدوا الطبيعة بل لأنهم بذلوا جهداً فى هذا المجال . ولا أدرى ماذا يقصد بقوله (وهوت جميع الأمم التى انصرفت إلى ما لا تحس ولا ترى) هل يقصد أنها انقرضت أم زال سلطانها .

إن كانت الأولى فهذا باطل بالمشاهدة إذ لايزال المسلمون موجودين على سبيل المثال وبالمقابل لانرى من الرومان ولا الفراعنة أحداً ولا أثر لحضارتهم ومن ينادى بأفكارهم .

وإذا كانت الثانية أى زوال السلطان فهذا صحيح على جميع الدول المتدينة وغير المتدينة وهكذا قال الشاعر :

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع[1]

فذهب الرومان واليونان والفراعنة وغيرهم إلا أنه يبقى جديراً بالذكر أن الإسلام يختلف عنها فى كونه سيرجع ويقوم سلطانه بإذن الله تعالى .

إن مايزعمونه من أن الدين وقف فى وجه الحضارة والتقدم فهذا ما لا يستطيع أحد إثباته على الدين الصحيح ، أما دين الكنيسة فهذا دين ليس من عند الله بل هو من اختراع البطاركة الرهبان .

وضعف الدول التى تدين بالإسلام ليس مرده إلى الإسلام بل إن ضعفها ناتج عن استغلال الدول الاستعمارية لها وسيطرة أذناب المستعمر من أبناء ذلك البلد على مقدرات الشعوب ومن مظاهر الاستعمار والمناداة بترك الدين والتجرد عنه لأنهم علموا أثر الدين وقوة سلطانه وموقف الدين من الاستعمار واضح .

(١) مرجع سابق رقم ١٨ ص ٢١٩ .

التفسير الجنسى

ومن تفاسير الملحدين — الشاذة — للدين — التفسير الجنسى إذ اعتبر فرويد الدين بأنه نوع من التسامى بالغريزة الجنسية فبحب الطفل لأمه وغيرته من أبيه وكراهيته الدفينة له (عقدة تسمى أوديب)[1] . اتخذت شكلا ظاهرياً من التفكير اللاشعورى عن هذه الكراهية بحب مبالغ فيه للأب ثم عبادته ثم عمل تمثال للأب وهكذا وجدت الأصنام ثم فى النهاية الاتجاه بالعاطفة والعبادة نحو أب سماوى مجرد وفى هذا الشأن قال الملحدون (إن فكرة الإله انعكاس للشخصية الإنسانية على شاشة الكون)[2] .

ويعتبرون الدين نتاج اللاشعور الإنسانى وليس انكشافا لواقع خارجى[3] .

ونسى فرويد أن فكرة وجود الله وجدت فى جميع المجتمعات حتى فى المجتمع البدائى الهمجى المشاعى حيث لا كبت ولا كبح ولا تحريم للأم على الابن ولا البنت على الأب وفى تاريخ الفراعنة ما يثبت أنهم كانوا يتزوجون بناتهم وأخواتهم وكان واجبا على فرويد أن يعلل لماذا لم يعبد الإنسان أبا سماوياً وإما سماوية إذ كذلك بناء على نظريته كانت البنت تفكر فى أبيها فلم لم تقتل أمها وتعبدها .

وبالتالى نصل إلى تعدد الآلهة وهذا يبطله واقع الموحدين .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٢٠

(٢) مرجع سابق رقم ٩٣ ، ص ١٢٥

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٠٣

الخوارق شذوذ

ويقول الماديون إن الدين يؤمن بالخوارق وقام عليها وهى شىء شاذ عن نظام العالم ودقة تركيبه فلا مجال للخوارق وعليه فلا مجال للدين لأنه قام عليها[1] .

والرد عليهم : نعم إن الدين قام على المعجزات والخوارق وهذا أمر ضرورى لإثبات كونه دينا من عند الله لا من قدرة البشر فإذا عجز البشر عن الإتيان بمثله كان لزاماً عليهم أن يقرروا أنه لابد أن يكون من عند من هو أقدر وأعلم وهو الله تبارك وتعالى أما أن الخوارق تشذ عن نظام العالم فهذا لابد من توضيحه. إن كان يقصد أنها لا تسير وفقاً لما اعتاده الناس كعصا موسى حيث انقلبت أفعى فهذا أمر حق وإن كان يقصد أنها لا تنسجم مع النظام الكونى ولا يمكن أن تقع فيه فهذا باطل بل هى منسجمة معه كل الانسجام . إذ الذى وضع نظام الكون هو الذى قدر الخوارق ثم إن كثيراً من الناس لا يرشدهم نظام العالم ودقة صنعه على البارى عز وجل فكان لابد من شىء يخالف هذا النظام ليلفت نظر الذين لم يلتفتوا فكانت الخوارق فهى للدلالة إلى البارى عز وجل لا لتنقض نظام العالم بل لتجعل الإنسان ينسجم مع هذا النظام فيعبد الله حق عبادته فكان ورودها لإتمام النظام وانسجام كل عناصر الكون ومنها الإنسان[2] .

---

(١) القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون ، مصطفى صبرى ص ٣٩

(٢) مرجع سابق رقم ١٨ ، ص ٢٢١

الخاتمة

تبين لنا من خلال هذه الدراسة ما يلى :

أولا : إن الإلحاد كظاهرة عامة ارتبطت فى القرون الثلاثة الأخيرة من تاريخ البشرية بأوروبا وأسهمت الكنيسة بقدر كبير فى بروز هذه الظاهرة لمحاربتها العلم ولتحريفها لدين الله الأمر الذى ولد كراهية للدين الذى مثلته ونفوراً منه وعصبية للعلم كبديل للدين لجأ إليه العلماء والمفكرون يلتمسون منه حلا لمشكلة الحياة جميعها .

ثانياً : لجأ الماديون المعاصرون إلى العلم سعياً إلى تأييد مقولاتهم واتخاذه سلاحاً فى حربهم للدين والكنيسة .

ثالثاً : قد بينا أن العلم لا يسند دعاوى الماديين الإلحادية ولا يؤيد مقولاتهم فقد كشف العلم تهافت مزاعم الماديين حول المادة والقول بأنها أساس الوجود والمصدر الوحيد للمعرفة ، وقد ابطلنا دعواهم بأن المادة أزلية .

رابعاً : أثبت البحث أيضاً ضعف تمسك الماديين بالمصادفة والطبيعة لتفسير ظهور الحياة فى الكون وما يجرى فيه من أحداث بل إن العلم يدحض دعاوى الماديين فى هذا الصدد ويدعم الإيمان بوجود إله قادر موصوف بالكمال .

والله ولى التوفيق ..

د . شوقى إبراهيم على عبد الله ؟